جوانب من الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز كما دونها الرحالة شارل ديدييه من خلال رحلته الموسومة بـ"رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م "

د/نهلة بنت شحات عمر محبت
أستاذ التاريخ الحديث والمعاص– المشارك
كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة طيبة
المدينة المنورة

الملخص :

تُعد رحلة المستشرق الفرنسي شارل ديدييه المعنونة بـ "رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م" مصدرًا مهمًا ومُلهمًا لجوانب الحياة الاجتماعية لبلاد الحجاز في تلك الفترة الزمنية التي قَدِم فيها شارل ديدييه لزيارة الشريف عبد المطلب الذي كان يقيم آنذاك في مدينة الطائف، ومن الجوانب الاجتماعية التي تعرض ديدييه لذكرها في كتابه؛ الحديث عن سكان مدن الحجاز التي زارها وتركيبتهم السكانية، ثم الألبسة التي كانوا يرتدونها، وكذلك الأطعمة والأشربة التي كان يتناولها أهل الحجاز، كما تعرض ديدييه للحديث عن المسكن الحجازي وبعض من تفصيلاته المعمارية، وشذرات من العادات والتقاليد الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: شارل ديدييه، الشريف عبد المطلب، الحجاز، الوجه، ينبع، جدة، الطائف، السكان، الأطعمة والأشربة، اللباس، السكن، العادات والاحتفالات.

Abstract:

Charles Didier's journey was considered an inspiring and important source for many aspects of the social life of the country at that time, when Charles came to visit Al-Sharif Abdulmutalib, who was staying in Taif. One of the social aspects that Charles has mentioned in his book was about the people of AL-Hijaz cities, and way they used to dress, as well as describing the food and drink in that area. Charles also talked about the Hijazi housing and its architectures.

Keywords: Charles Didier, Al-Sharif Abdulmutalib, Al-Hijaz, Alwajh, Yanbu, Jeddah, Taif, Food and drink, clothing, housing, Traditions and celebrations.

المقدمة :

داعب حُبُّ المغامرة والترحال مُخَيلةَ كثير من المستكشفين المستشرقين الأوروبيين؛ فدفعهم حب المغامرة للسفر إلى أماكن كثيرة لم يشاهدوها من قبل، ولم يدر بِخَلد بعض منهم الوصول إليها.

ورغم أننا نجزم بأن غالبية هؤلاء المغامرين من الأوروبيين كانوا مندفعين بدوافع عدة؛ دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية صَرَّح بها بعضهم، وأخفاها البعض الآخر وظلت في طَيِّ السِرِّ والكتمان، إلا إنَّ ذلك لا ينفي أن عددًا منهم قدموا يُحَفِزُهُم حب المعرفة وشغف الاطلاع.

والبحث المُعَّد بصدد الحديث عن رحلة الرحالة الفرنسي شارل ديدييه الموسومة بـ "رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م"، والتي لبَّى صاحبها دعوة صديقه البريطاني القس هاملتون Abb Hamilton في مشاركته هذه الرحلة إلى بلاد الحجاز(١).

ولمَّا كانت هذه الرحلة تتناول بين طيات أوراقها معلومات وأخبار عن حياة مجتمع الحجاز، **فقد برزت أهمية دراسة الموضوع للأسباب الآتية:**

- عدم وجود دراسة علمية مستقلة –في حدِّ علمي وبحثي– تناولت الجانب الاجتماعي في رحلة ديدييه للمدن التي زارها في بلاد الحجاز مجتمعة.
- القيمة العلمية لرحلة ديدييه في تناولها لجوانبٍ من الأوضاع الاجتماعية لبلاد الحجاز مثل : السكان، المسكن، الأطعمة، الألبسة والأزياء، العادات والتقاليد، والاحتفالات التي دونها في كتابه.
- معاينة صاحب الرحلة للأحداث التي دونها في كتابة؛ وخاصة مايخص الجوانب الاجتماعية منها.
- دقة الوصف وشموليته وموضوعيته في بعض الجوانب التي تناولها ديدييه في رحلته.
- إلقاء نظرة على جوانب من حياة المجتمع في تلك الفترة الزمنية التي كانت بلاد الحجاز تنضوي تحت لواء الحكم العثماني.

وتنقسم خطة البحث إلى: المقدمة؛ التي تتضمن أهمية الموضوع وأسباب اختياره، ومبحثين وخاتمة.

المبحث الأول : التعريف بالرحالة شارل ديدييه وأهمية رحلته .

---

(١) ديدييه، رحلة، ص٢٩، وفي ذلك يقول الناشر الفرنسي للرحلة: "لقد طلب المؤلف–يقصد شارل– أربع وعشرين ساعة للتفكير، ولكن ميوله للترحال دفعه لاتخاذ قرار عاجل، فلم تمض ساعة حتى كان موافقا على ماعرضه عليه البريطاني".

المبحث الثاني : جوانب الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز كما وصفها الرحالة ديدييه ويتضمن المحاور التالية:-

أولا: السكان والتركيبة السكانية.

ثانيًا: السكن والمرافق الاجتماعية.

ثالثًا: الأطعمة والأشربة.

رابعًا: الأزياء والملابس.

خامسًا: العادات والتقاليد.

سادسًا : الاحتفالات والمناسبات.

الخاتمة : وتتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول : التعريف بالرحالة شارل ديدييه وأهمية رحلته .

(أ) التعريف بالرحالة شارل ديدييه :

يُعدُّ شارل ديدييه Charles Didier رمزًا من رموز الأدب الفرنسي، كما أنه أحد رجالات الصحافة والإعلام، وُلد هذا الأديب والشاعر والصحفي المنحدر من أصول فرنسية في مدينة جنيف سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ثم تجنس بالجنسية السويسرية، وتلقى تعليمه في معاهد العلم ومراكز الثقافة بجنيف؛ فدرس علم النبات والرياضيات والقانون، ثم عاد إلى عاصمة بلاده باريس واستقر فيها (١).

وقد لعب شارل ديدييه دورًا في شؤون السياسة والإدارة؛ فأوفدته حكومة فرنسا سنة ١٢٦٦هـ/١٨٤٨م في مهمات رسمية إلى بولندا وألمانيا، فاكتسب خبرة ودراية بأحوال تلك البلاد(٢).

---

(١) ديدييه، رحلة، ص١٥ مقدمة المترجم ؛جريس، القول المكتوب، ج(١٣)، ص٥١؛ مُعَبِّر، الرحلات، ج(١)، ص٣٧١؛الرفاعي، ينبع،ص٢٨٨؛ آل زلفة، الطائف، صحيفة الجزيرة الإلكترونية.

(٢) ديدييه، رحلة، ص١٥ مقدمة المترجم؛مُعَبِّر، الرحلات، ج(١)، ص٣٧١ ؛الرفاعي، ينبع، ص٢٨٨؛ آل زلفة، الطائف، صحيفة الجزيرة الإلكترونية.

أظهر شارل ديبيه اهتمامًا بحب الترحال والسفر، ودفعه شغفه بالرحلة إلى زيارة عدد من البلدان العربية والآسيوية والأفريقية والأوروبية؛ فزار المغرب العربي سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م، وتنقل في أرجاء بلاد مصر، كما وصل إلى سِنَّار(١) بالسودان، وفي أوربا تنقل بين بلاد إيطاليا وأسبانيا ثم دفعه حبه للاكتشاف والمغامرة لزيارة شبه الجزيرة العربية سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م(٢) .

عَمِل ديبيه في ميدان الصحافة الفرنسية، فأنشأ سنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م صحيفة l,etat، كما أشرف ديبيه على صحيفة لوكورييه دولمان Le courier du Le man؛ وهي صحيفة سياسية وأدبية، كما تعاون مع الروائية الفرنسية جورج صاند George Sand (١٢١٩هـ-١٢٩٣هـ/١٨٠٤-١٨٧٦م) في إصدار جريدة العالمين les deux mondes(٣).

ترك ديبيه رصيدًا من المؤلفات والكتابات كان من أبرزها مذكرات رحلاته ومنها: "سنة في إسبانيا" و"حملة على روما" و"جولة في المغرب" و"خمسون يومًا في الصحراء"، و"خمسمائة فرسخ على النيل" "وليالي القاهرة"، "ورحلة إلى رحاب الشريف الأكبر"التي تمركز هذا البحث حول جوانبها الاجتماعية(٤)، كما أصدر ديبيه كتابًا سماه "زيارة لدوق بوردو" une visite M. le Duc de(٥).

تُوفي شارل ديبيه سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م في باريس بعد أن أقدم على الانتحار، وكان قد أصيب بالعمى وفقد بصره (٦)، وقد صرَّح بذلك أثناء مغادرته للطائف قائلاً : "إن نظري الذي أكاد أفقده تمامًا لحظة إملاء حكاية آخر رحلاتي كان حينئذٍ في أسوء حال"(٧)؛ مما يدلل على أن شارل قد أملى رحلته ولم يكتبها بنفسه.

---

(١) سنار:مدينة في وسط جمهورية السودان على النيل الأزرق، كانت عاصمة لمملكة الفنج الإسلامية ونجح حكامها من الفنج في مدِّ حدودها من عطبرة حتى النيل الأبيض في القرن ١٦م ثم انهارت في القرن ١٧م فضمتها مصر لها سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢١م. بُنِيَّ على مقربة من سنار سدٌّ على النيل الأزرق ليروي أراضي الجزيرة.(غربال،الموسوعة العربية،ج(١)، ص١٠١٨؛ حسين، السودان، ج(١)، ص٣٨،٧٨.

(٢) ديبيه، رحلة، ص١٦ مقدمة المترجم ؛جريس،القول المكتوب، ج(١٣)، ص٥١؛ الرفاعي، ينبع، ص٢٨٨.

(٣) ديبيه، رحلة، ص١٦ مقدمة المترجم .

(٤) ديبيه، رحلة، ص١٧ مقدمة المترجم؛مُعَبِّر ،الرحلات،ج(١)،ص٣٧١ .

(٥) ديبيه، رحلة، ص١٦ مقدمة المترجم ؛الرفاعي،ينبع،ص٢٨٨.

(٦) ديبيه، رحلة، ص١٧ مقدمة المترجم؛الرفاعي،ينبع،ص٢٨٨؛آل زلفة،الطائف،صحيفة الجزيرة الإلكترونية.

(٧) ديبيه، رحلة، ص٢٦٣ . وقد أعرب ديبيه عن مدى تقديره لتعاطف الشريف عبدالمطلب معه حول وضعه الصحي وعبَّر عن ذلك بقوله:"وقد أظهر لي الأمير بأصدق العبارات تمنياتي بصحة أفضل وأعرب عن تعاطفه معي"ص٢٦٣ .

(ب) أهمية رحلة شارل ديدييه:

بدأ شارل ديدييه رحلته بتاريخ ١٦يناير ١٨٥٤م(١) من مصر، وكان شارل أثناء وجوده بمصر يُعِدُّ عدته للعودة إلى أثينا ومنها إلى بلاده، ولكن صديقه البريطاني هاملتون اقترح عليه أن يصحبه في رحلته إلى الحجاز فوافقه الرأي وخرج معه(٢).

تميزت بعض كتابات شارل ديدييه بملامسة جوانب حضارية واجتماعية؛ بالتعمق في دراسة أحوال السكان في المناطق التي زارها، ووَصْفِ شيئاً من أنماط أحوالهم المعيشية؛ متناولاً عاداتهم في الطعام والشراب واللِّباس والاحتفال، وكان ديدييه قد طبَّق هذه الكتابة الوصفية في كتابه "خمسمائة فرسخ على النيل" حيث أفاض في الحديث عن مشاهداته في الخرطوم وسنار، وله رواية "روما تحت الأرض" أيضا قدَّم فيها صورًا حيَّةً عن الحياة السياسية والاجتماعية في إيطاليا(٣).

ويستمر هذا القلم الوصفي لديدييه في كتابه "رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر..." فيجد القارىء المتمحص بين ثنايا صفحاته صورةً حيَّةً للمجتمع الحجازي في المدن الحجازية التي زارها؛ بدءًا بميناء الوجه فينبع، ومروراً بجدة، وانتهاء بمدينة الطائف التي كانت هدف رحلته الأسمى، حيث كان يُقيم فيها شريف مكة عبدالمطلب؛ غير متجاهلٍ الدروب والطرق التي قطعها، والقرى والأرياف التي مرَّ بها، والمحطات التي توقف للاستراحة عندها معطيًا كلاً منها نصيبه من السرد والوصف والمعاينة متفاوتاً بين الإطالة والتفصيل، والاقتضاب والإيجاز، مما جعل القارئ والباحث قادرًا على استخراج مادة علمية عن السكان وأصولهم التي ينتمون إليها، وأصناف الأطعمة والأشربة التي يتناولونها، والألبسة التي كان يرتديها عامة أبناء المجتمع وخاصتهم من الرجال والنساء، ثم إن هناك إشارات داخل سطور الرحلة عن تفاصيل المسكن الحجازي وتقسيماته، ولم يَغفل قلم شارل ديدييه عن تسطير بعض الشذرات عن عادات وتقاليد المجتمع الحجازي وجوانبٍ من الاحتفالات التي كان يقيمها أبناؤه.

وسيجد القارئ المُتمعن خلال الصفحات القادمة في هذا البحث حصراً وتتقية للجوانب الاجتماعية واستبعاد مما عداه من الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية التي تضمنتها الرحلة مما هو ليس مجال الحديث عنه.

---

(١) توافق ١٦/ ٤/ ١٢٧٠هـ.

(٢) ديدييه، رحلة، ص١١ مقدمة المترجم ؛آل زلفة،الطائف،صحيفة الجزيرة الإلكترونية.

(٣) ديدييه، رحلة، ص١٨ مقدمة المترجم.

وحتى يتسنى للقُرَّاء الإحاطة بتلك الجوانب الاجتماعية، فقد جاءت الدراسة مقسمةً إلى عدد من المحاور التي تجمع ما تفرق في صفحات الرحلة عند كل عنصر من عناصر الحديث عن الحياة الاجتماعية، وبمعنى أدق فقد آثر البحث أن يجمع ما كتبه ديدييه عن السكان في رحلته في جميع المدن التي زارها أثناء دخوله للحجاز وآراءه وأقواله. ثم ينتهج المنهج نفسه والطريقة ذاتها في بقية الطرح.

وتجدر الإشارة إلى أن السيد دوكيه M . Dequie قد رافق ديدييه في رحلته من جدة إلى الطائف –وهو مُترجم للقنصلية الفرنسية في جدة وموثق العقود فيها– وكان القنصل الفرنسي في جدة قد طلب من دوكيه أن ينوب عنه في مرافقة شارل بسبب مرضه، وقد أبدى دوكيه استعداده لأداء الخدمات ومَدِّ يد العون والمساعدة(١)، كما رافقه صديقه البريطاني هاملتون ولكنه للأسف لم يقدم لشارل ماقدَّمه دوكيه من العون والخدمة(٢).

المبحث الثاني: جوانب الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز كما وصفها الرحالة ديدييه.

أولا: السكان والتركيبة السكانية:

لِكُلِّ مجتمع من المجتمعات المدنية سمات وخصائص تميزه عن غيره من المجتمعات، ولمَّا كانت بلاد الحجاز تَضُمُّ الحرمين الشريفين؛ فقد تنوعت الفئات البشرية التي تعيش بداخلها مابين سكانها الأصليين الذين تشبثت جذورهم في هذه الأرض المباركة، ومابين الوافدين الذين آثروا الإقامة في هذه الرحاب الطاهرة، فقد اجتذب الحرمان الشريفان قلوب المسلمين وعقولهم من كافة أنحاء المعمورة لنيل شرف المجاورة بها ومن أبرز العناصر البشرية التي ذكرها ديدييه في رحلته:

أ- **القبائل العربية:**

شكلت القبائل العربية القاعدة العريضة في مثلث هرم التركيبة السكانية لشبه الجزيرة العربية عامة ومجتمع الحجاز خاصة، ولذلك اعتُبرت شبه الجزيرة موطناً للعناصر العربية الأصيلة التي لم تحاول الاختلاط بغيرها من العناصر الخارجية بل حافظت على ملامحها وصفاتها، وكانت كل قبيلة تستحوذ على منطقة من الأرض تحرص أن تكون قريبة من موارد الماء والكلأ ولايشاركها غيرها فيها، ويذود أبناء القبيلة عنها بأرواحهم وأموالهم؛ ولذا كانت الحروب والمنازعات تقوم حول مايمكن اعتباره مقومات الحياة الرئيسة، وكثيراً ما أُبيدت قبائل أو فَنِيت خلال تاريخ تلك الصراعات، وكثيراً ما يقع تحالف بين قبيلة وأخرى للسيطرة عليها أو تنضوي قبيلة تحت جناح قبيلة أخرى أقوى منها(٣).

---

(١)ديدييه، رحلة، ص٢١٦ .

(٢)ديدييه، رحلة، ص ١٩، ٢٤، ٢٩، ١٦٣ .

(٣) الشريف، جغرافية المملكة، ج(٢)، ص٨١؛ السيف،الحياة الاقتصادية،ص٢١٩؛ الشريف، مكة والمدينة، ص٣٠ ،٢٥؛ العلي، الحجاز، ص١٧٧.

وكان قِوَامُ اقتصاد قبائل بادية الحجاز قائماً على الرعي الذي يُعدُّ مصدراً رئيساً لأغلب منتجاتهم الغذائية من الألبان ومشتقاتها؛ كالجبن والسَّمن والزبد والأقط ثم اللحوم. وقامت على الثروة الحيوانية صناعات محلية بسيطة مثل الصناعات الجلدية كالأحذية والأحزمة وقِرب الماء والدِلاء (١).

ولمَّا كان ديدييه قد تصدى في كتابه هذا لذكر أحوال مجتمع الحجاز فقد تحدث عن بعض قبائل الحجاز؛ فكانت مدينة الوَجْه(٢) أول مناطق اليابسة التي وطأتها أقدام ديدييه في بلاد الحجاز، وكان سكانه –كما ذكر– أعرابًا من قبيلة بَلِيّ(٣).

وبعد أن تحركت السفينة التي كانت تُقِلُّ ديدييه ورفاقه من الوجه سارت بين أمواج البحر الأحمر حتى توقفت عند ميناء يَنْبُع(٤)، فكان لشارل كتابات عنها أبرزت جانباً من ملامح حياتها الاجتماعية، فقد أشار ديدييه إلى أن قبيلة جُهَيْنَة (٥) كانت تشكل الغالبية العظمى من سكانها،

---

(١) الشريف، جغرافية المملكة، ج(٢)، ص ٨١،٨٢؛ نواب،كتب الرحلات، ص٣١٩،٣٢٠،٣٢٦.

(٢) الوجه: مدينة حجازية على ساحل البحر الأحمر، تقع شمال مدينة ينبع وشمال مصب وادي إضم، وقد وردت عدة أقوال في تسميتها بالوجه منها: أن أرضها منبسطة ومرتفعة عن سطح البحر، ومنها أن الوجه أول مايواجه الحجاج القادمين من مصر وأفريقيا من أرض الحجاز، وكان ميناء الوجه يقوم تصدير الأغنام والسمن والفحم لمصر في السابق، وقد أنشأت فيها حكومة المملكة العربية السعودية سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م محطة لتحلية مياه البحر، كما عملت حكومة المملكة على تزويدها بكافة الخدمات شأنها شأن غيرها من المدن السعودية التي حَفَّتَها يد الإصلاح والنهضة الشاملة من مدارس ومستشفى ومحكمة ومطار جوي ومساكن حديثة، كذلك عملت على ترصيف الشوارع وانارتها، وتعدُّ اليوم الوجه محافظة من محافظات منطقة تبوك تبعد عنها ثلاثمائة كيلً.(البلادي،معجم معالم الحجاز، ج(٩)، ص١٢٩،١٣٠؛ الرويثي، الموانىء السعودية، ص٤٢٠،٤٢١.

(٣) ديدييه، رحلة، ص١١٦؛ البقاعي، قراءة في رحلة،ص٩٣، وبلي: والنسبة اليهم بَلَوِيٌّ، وتنتشر ديارهم شمال الحجاز حول بلدة الوجه، وتمتد شرقًا حتى مدينة العلا ونواحيها، وفي أطراف حرة العويرض، ولهما جِذْمان كبيران هما: مَخْلَد، وخزام.(الجاسر، معجم قبائل المملكة، ص٢٢؛ أوبنهايم وآخرون، البدو، ج(٢)، ص٥٠٦.

(٤) ينبع : تقع محافظة ينبع في منتصف الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، غرب المملكة العربية السعودية، مع ميل نحو الجنوب الغربي، فوق بقعة من الأرض يلتقي فيها سهل تهامة بالبحر الأحمر، وهي منطقة ساحلية محصورة بين شرم ينبع في الشمال ومصب وادي الفُرَعة في الجنوب، وتتبع إداريًا منطقة المدينة المنورة التي تبعد عنها (٢٤٠) كيلاً في الجنوب .(بكر، الملامح الجغرافية، ص١٤١؛ عامر، حكاية اسم (ينبع)،ص٦٤؛ الأحمدي، مدينة ينبع، ص٢٤؛ البلاع، السياحة في ينبع،ص٤٩.

(٥) جهينة : قبيلة عربية ؛ قحطانية النسب من قبائل قضاعة اليمنية، وينسبون لجهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة، وهي قبيلة كبيرة تسكن الحجاز حول وادي إضم الذي يصب في البحر الأحمر، وقد تفرقوا بينبع وبدر وبُواط والحوراء وودَّان، وتمتد قرى الجهنيين المستقرين من ينبع النخل حتى عُمق المناطق خلفها، ويعمل كثير من أبناء جهينة في صيد الأسماك واللؤلؤ، ولهم بقايا في مصر، وقد عرف منهم عدد كبير من صحابة الرسول ﷺ.(أوبنهايم وآخرون، البدو، ج(٢)، ص٥١٤،٥١٥؛ هيئة التحرير بمجلة العرب، جهينة، ص٢٢٠،٢٢١، ٢٢٢، ٢١٩، ٢١٧.

وكان شيخ قبيلة جهينة يسكن في إحدى قرى ينبع النخل(١)؛ والتي بلغ عددها حين زار شارل ديدييه ينبع اثنتي عشرة قرية(٢).

ومن فئات القبائل العربية التي تحدث عنها شارل ديدييه أيضًا أثناء رحلته من ينبع إلى جدة أفراد من بني زُبَيْد (٣) من حرب وهم –كما ذكر– ممن عدلوا عن حياة التنقل والترحال ومالوا إلى حياة التحضر والاستقرار؛ فعملوا بالصيد والملاحة وركوب البحر، مما جعل مكانتهم الاجتماعية تهبط في نظر غيرهم من القبائل العربية (٤).

وقد أجاد ديدييه في وصف أحد الصياديين الزيديين المهرة الذي عرض عليهم بعضًا من السمك الذي اصطاده إلا إن ديدييه وأفراد قافلته تعذر عليهم شراؤه مقايضة بما كان يطلبه صاحبه من القمح والتبغ وهو مما لم يكن متوفر معهم(٥).

---

(١) ينبع النخل : يطلق هذا الاسم على جهة واسعة تقع على الجانب الشرقي من ينبع البحر، وهي في شكل عقد من القرى ينتظم من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي. وهذه القرى عامرة بالسكان وعيون المياه والبساتين وأشجار النخيل، ومن أشهر العيون بها الجابرية والبثة وخيف حسين وغيرها، وينبع النخل تتبع إمارة منطقة المدينة المنورة التي تبعد عنها ٢٨٠كيلاً مرتبطة معها بطريق إسفلتي يمر بينبع البحر وينبع الصناعية متخللاً وادي الصفراء. وقد كانت ينبع النخل تمثل محطة مهمة من محطات طريق الحاج المصري. ثم مرت بفترة ركود بعد تحول الطريق إلى ينبع البحر، وقد شملتها النهضة الحضارية بالمملكة العربية السعودية؛ فأُنشأت بها المدارس الحكومية بمختلف مراحلها والمراكز الصحية وفروع للدوائر الحكومية. (صبري باشا، مرآة جزيرة العرب، ص١٥٢،١٥٣؛ بكر، الملامح الجغرافية، ص١٤٠؛ ؛ النزاوي، ينبع النخل، ص١٠–١٢.

(٢) ديدييه، رحلة، ص١٢٨. وقد انتشرت قبيلة جهينة على الساحل الشمالي للبحر الأحمر، وعُرف من استقر منها في ينبع باسم المستوطنين أو الينبعا وبين. (بوركهارت،ترحال،ج(٢)، ص٢٠٩؛ الرفاعي، ينبع، ص٢٩٥؛ محبت، ينبع،ص٥٥٥.

(٣) زبيد : والنسبة إليهم زبيدي، قبيلة من مَسْروح من حرب تسكن ساحل البحر الأحمر جنوب جدة، وتنقسم زبيد اليوم إلى العُزَرَة وزبيد الشام، ويسكنون المنطقة المحيطة برابغ إلى قرب بدر شمالاً ومنهم آل مُبَيْريك والغوانم، ثم القسم الثالث الصَّحَّاف والنسبة إليهم صحفي ومنهم العُتْبان في أسفل وادي غُزَان مما يلي خُلَيْص. (الجاسر، معجم قبائل المملكة، ص١١٤.

(٤) ديدييه، رحلة، ص١٣٤، وقد أشار أوبنهايم إلى أن كثيراً من أبناء قبيلة زبيد يعملون بصيد الأسماك، ولذلك تعتبرهم بقية حرب أدنى مكانة.(البدو،ج(٢)،ص٥٣٧.

(٥) ديدييه، رحلة، ص١٣٤،١٣٥ .

وفي جدة التقى ديديبه بالأمير خالد بن سعود(١٢٥٥-١٢٥٧هـ/١٨٣٨-١٨٤١م) (١) بعد القضاء على حكمه في نجد على يد عبد الله بن ثنيان واستمر بجدة حتى وفاته سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م(٢).

وخلال إقامة الأمير خالد في جدة كان يَفِد عليه أفراد من قبيلة الهواجر(٣) المناصرين له ولحكمه، ولذلك سُرَّ ديديبه برؤية هؤلاء الأعراب (الأقحاح)؛ إذ إن أغلب من شاهدهم في جدة هم من الأتراك والهنود واليونانيين، وكان له رغبة ملحة في رؤية العرب، وقد تردد ديديبه على لقاء خالد، كما اجتمع معه في منزل السيد دوكيه(٤).

ومن القبائل العربية التي ورد ذكرها ضمن رحلة شارل قبيلة عُتَيْبَة(٥) التي كانت كانت تسكن وتنتشر في الجبال الممتدة جنوب الطائف حتى المدينة المنورة، واتصف بشدة مراسها وحبها للقتال؛ غير إنه أثناء مرور ديديبه ومرافقيه عند ريع الزلالة (٦) الذي

---

(١) خالد بن سعود : بن عبد العزيز بن محمد بن سعود أمير من أمراء الدولة السعودية الأولى، نشأ في مصر، ولمَّا اشتد أمر الإمام فيصل بن تركي في نجد أرسل له محمد علي باشا والي مصر قوة عسكرية بقيادة خالد سنة ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م لقتاله، فدارت بينهما معارك عدة انتهت باستسلام الإمام فيصل في رمضان سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٨م وإرساله لمصر، وكانت هذه فترة حكمه الأولى، فحكم الأمير خالد نجد حتى ثار عليه الأمير عبد الله بن ثنيان بن إبراهيم بن ثنيان بن سعود فرحل خالد إلى المنطقة الشرقية سنة ١٢٥٧هـ/١٨٤١م ثم إلى الكويت ومنها إلى مكة المكرمة، وتوفى بجدة محموماً.(ابن بشر، عنوان المجد، ج(٢)، أحداث ١٢٥٤هـ إلى ١٢٦٧هـ؛ الحنبلي، مثير الوجد، ص١٢٧، ١٢٨.

(٢) ديديبه، رحلة، ص ١٧٥.

(٣) الهواجر:(بنو هاجر)، ومفردها هاجري: قبيلة قحطانية اشتهر أفرادها بالكرم والنخوة، وهي بطن من عبيدة كانت منازلهم بالقرب من سُرَّاة عبيد ثم انتقلوا إلى ساقلة نجد ومنها إلى الأحساء، كما تفرق عدد منهم في قطر والكويت وبقية بلدان الخليج العربي، وينقسمون إلى آل مخضبة وآل محمد وآل يزيد.(الجاسر،معجم قبائل المملكة،ج(١)،ص٣٤٠-٣٤٢.

(٤) ديديبه، رحلة، ص١٧٦،١٧٧؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص٩٧-٩٨.

(٥) عتيبة: من أشهر قبائل شبه الجزيرة العربية وأكثرها بطوناً وأفخاذاً؛ تمتد مساكنها من جبال الطائف الجنوبية حتى حتى أم الغُطَغُط وسَنَام في نجد، ويرجح أنهم يرجعون إلى بني سعد؛ وهم بطن من بطون هوازن ولايزالون يعرفون بهذا الاسم حتى اليوم، ومن فروع عتيبة بالحجاز بنو سعد والطِفحَة وشَمْلي وبَرْقا، وديارهم لايضاهيها ديار قبيلة أخرى لسعتها وكبر رقعتها، ويجاورهم من الشمال والغرب ثقيف وهذيل ومطير وحرب، ومن الجنوب والشرق بلحارث والبُقوم وسُبيع وقحطان نجد،(الزيدي، قبائل الطائف، ص٦٨،٦٩.

(٦) ريع الزلالة: وهو الريع الذي تخرج فيه من السيل الكبير إلى الطائف، وهو أول المناقب مما يلي مكة المكرمة، والسيل الكبير هو الموضع الذي يحرم منه النجديون من قرن المنازل. (البلادي، معجم معالم الحجاز،

كانت عتيبة تهاجم فيه من يَمُرُّ به لم يتعرضون لأي أذى منهم(١).

وعند وصول ديدييه وأفراد قافلته إلى قمة جبل كَرَا (٢) أرسل لهم الشريف عبدالمطلب(٣) اثنين من الأشراف لاستقبالهم لإكرامهم وضيافتهم، وكان أحد هؤلاء الشريفين هو الشريف سليم الذي قدم لاستقبالهم ومعه ستون رجلاً من أبناء قبيلة هُذَيْل(٤) الذين عُرف عنهم صفات البطولة والشجاعة؛ ولذا أقبلوا وهم متسلحون

ج(٤)،ص١٣٧.

(١) ديدييه، رحلة، ص٢٧٣.

(٢)جبل الكرا : بالفتح والقصر ؛ جبل ضخم يصعده المتجه من مكة المكرمة إلى الطائف كان طريقاً وعر المسالك لا تصعده إلا الحمير والجمال المدربة، حتى تم تذليل عقباته وتعبيده في العهد السعودي سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م لتسير عليه السيارات، تسيل منه صدور وادي نعمان وفي رأسه مما يلي الطائف فَرعة تسمى الهدأة، وهي اليوم من أجمل مصائف المملكة العربية السعودية، وبأسفله قرية الكُرّ ومنه ينحدر وادي الكر ووادي عَلَق،(البلادي، معجم معالم الحجاز، ج(٧)، ص٢٠٧،٢٠٨.

(٣) الشريف عبدالمطلب بن غالب: بن مساعد الحسني من أمراء مكة المكرمة ولد بها سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م تولى إمارة مكة لثلاث فترات كان مجموعها ثمان سنوات امتدت الفترة الأولى خمسة أشهر من سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م، توجه بعدها إلى إستانبول ومكث بها حتى سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م، حيث بدأ فترة حكمه الثانية حتى سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م وقعت خلالها فتنة بمكة المكرمة كان سببها عدم بيع الرقيق، وتوجه أيضاً بعد عزله للمرة الثانية للإقامة في إستانبول إلى أن شهدت سنة ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م إعادته للإمارة للمرة الثالثة حتى ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م، حيث فُصل عنها. توفي بمكة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م،(دحلان، تاريخ أشراف الحجاز، ص٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٦٠، ٦٣؛جارشلي،أمراء مكة، ص١٥٩–١٦٦؛ غوري، حكام مكة،ص٣١١–٣١٣.

(٤) هذيل : واحدهم هُذَلِّي تنتمي إلى هذيل بن مدركة بن اليأس بن مضر بن نزار، وهذيل بلادها حول مكة المكرمة والطائف في وادي نخلة اليمانية والشامية وفي الجَعْرَانة، وفي وادي فاطمة وجبل كبكب وفي عرفات وأودية نَعْمَان ورَهْجان وضيم ورفاق إلى يَلَمْلَم السَّعْدِيَّة، ومنهم من يسكن سراة الطائف، وما أشرف منها غرباً ومايُسال من أوديتها إلى تِهامة، ولهذا تُقسم هذيل باعتبار منازلها إلى هذيل الشام، وهذيل اليمن ؛ فالأولى تقع ديارهم شمال مكة المكرمة وشرقها والثانية ينتشرون جنوب عرفات وادي نعمان، ومنهم هذيل الطائف، وقد اشتهرت هذيل بفصاحتها ووضوح بيانها وكثرة شعرائها؛فكانت باديتها منتجعاً للأدباء والفقهاء وطلاب اللغة،(الجاسر، معجم قبائل المملكة، ص٣٤٥، ابن سرور، قبائل الطائف، ص٣٥؛الزيدي،قبائل الطائف،ص٤٨.

بالخناجر والرماح والبنادق ذات الفتيلة، ولعل هذا المنظر المهيب لهم جعل ديدييه يصفهم بأنهم أمهر رماة الصحراء، وقد أظهروا التقدير والاحترام لشارل ورفاقه(١).

وعند وصول ديدييه إلى الطائف، تحدث عن قبيلة ثَقِيفْ(٢) التي كانت تشكل غالبية سكان الطائف الذين ترك غالبيتهم حياة التنقل والترحال، وامتهنوا بعض المهن التي عرفها أهالي المدن؛ كالصناعة والتجارة فأصبح لهم باعٌ في صناعة الأسلحة؛ كالسيوف والأحزمة الخاصة بهم وصناعة الجلود، والسجاد المغزول من وبر الجمال، وبعض المجوهرات التي تتزين بها نساؤهم(٣).

(ب) الموظفون العثمانيون:

دخلت بلاد الحجاز تحت حكم الدولة العثمانية سنة٩٢٣هـ/١٥١٧م؛ وذلك عندما نجح السلطان سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) من تقويض أركان دولة المماليك وإعلان السيادة العثمانية على البلاد العربية التي كانت تحت السيادة الملوكية، ولمَّا كانت بلاد الحجاز تتبع تلك السيادة، فقد بادر شريف مكة المكرمة آنذاك بركات الثاني بن محمد(٩٠٣-٩٣١هـ/١٤٩٧-١٥٢٥م) بقبول الحكم العثماني، فدخلت الحجاز سلماً في كنف الدولة العثمانية؛ التي بادرت بتنظيمها إداريًا عبر بعض الإجراءات الإدارية التي تنظم شؤونها الداخلية؛ فإلى جانب الإبقاء على منصب شريف مكة المكرمة، أوجدت منصب الوالي العثماني في جدة، كما حرصت الدولة العثمانية على نشر حاميات عسكرية ترابط في القلاع والتكنات المخصصة لها، وتنتشر في الأماكن التي ستدعي وجودها فيها لحفظ الأمن، وتعيين شيوخ الحرم والقضاة والأئمة والمفتين، وعدد من موظفي الإدارة والمالية مثل الدفتردار والمكتوبجي ومدير البريد وغيرهم، ولاشك أن هؤلاء الموظفين العثمانيين كانوا يحتلون جزءًا من قطاع المجتمع الحجازي(٤). وقد التقى ديدييه ببعض هؤلاء الموظفين، وتحدث عن بعضهم الآخر في ثنايا رحلته وكان ممن أشار إليهم :

---

(١) ديدييه، رحلة، ص٢٣٣، وقد وصفهم أوبنهايم بأنهم غزاة موهوبون قدَّموا فرسانهم إلى ساحات الوغى في حروب الدولة السعودية الأولى.(البدو،ج(٢)،ص٥٥٩ .

(٢) ثقيف : قبيلة عربية، إحدى قبائل قيس بن عيلان المعروفة بالقبائل القيسية، ونسبها إلى ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن حتى ينتهي إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ومن أشهر فخوذها عوف وبنو مالك والحمدة وبنو سُفيان وطُويرق والثُّمور وبنو سالم وغيرهم، كانت ثقيف تقيم منذ عصور ماقبل الإسلام في الطائف وماحولها من المناطق غرب شبه الجزيرة العربية، وقد أسلم وفد الطائف من ثقيف في السنة التاسعة من هجرة المصطفى ﷺ،(الطيب،موسوعة القبائل، مج(٥)، ص٨٩٥؛ أوبنهايم، البدو،ج(٢)، ص٥٦٣،٥٦٤؛ الزيدي، قبائل الطائف، ص٤٦،٤٧.

(٣) ديدييه، رحلة، ص٢٥٣ .

(٤) أنيس، الدولة العثمانية، ص١٢٩،١٤٢؛ يوسف، الحجاز، ص٦٥-٧٩؛ الخالدي، الإدارة العثمانية، ص٤٦-

رجال الحامية العسكرية العثمانية التي شكلت جزءًا من المجتمع الحجازي آنذاك، فعند نزول ديدبيه وأفراد قافلته إلى بلدة الوجه، كان في استقبالهم بعض أفراد جنود الحامية العثمانية، وكان أحد هؤلاء الجنود يجيد التحدث باللغة الفرنسية، وهو الأمر الذي جعل ديدبيه يبدي شيئاً من الارتياح بل والسعادة لوجود من يتخاطب معه دون الحاجة إلى وسيط؛ وهذا مادفعه لإمضاء بعض من الوقت معه وتناول القهوة سويًا؛ لاسيما أن هذا الضابط العثماني قدَّم لأفراد الرحلة خدمات وتسهيلات عند نزولهم ميناء الوجه(١).

وعندما وصل ديدبيه ورفاقه إلى ميناء ينبع التقى بعدد من أفراد الحامية العثمانية الذين حاولوا إظهار شجاعتهم وبراعتهم القتالية بحملهم للغدرات(٢) الطويلة، وكان أفراد تلك الحامية من عناصر عدة؛ فمنهم الباشي بوزق(٣) والأرناؤوط(٤) والأكراد، وأما حاكم بلدة ينبع، فكان أيضًا من الأتراك العثمانيين ممن يحملون لقب أفندي(٥). وأما الحامية العسكرية العثمانية في جدة، فقد كانت تُقيم في الثكنة العسكرية التي بناها محمد علي باشا(٦) بالقرب من باب

٤٨؛ المطوع، إمارة المدينة، ص٩٣، ٩٤.

(١) ديدبيه، رحلة، ص١١٦ .

(٢) الغدرات: الغدارة: لفظ فارسي هندي؛ وهو سلاح على شكل حربة تشبه السيف إلا إنها عريضة وثقيلة، طرأ عليها بعض التحوير في المعنى، فأصبحت تطلق على سلاح ناري يعرف بالطبنجة، وهو بين المسدس والبندقية.(الخطيب، معجم المصطلحات، ص٣٣٠ .

(٣) الباشي بوزق : لفظ تركي أطلق على القوات غير النظامية (الجيش الشعبي أو المليشيات)، تطوعوا أثناء الحرب ثم التحقوا بالجيش النظامي وعُهد إليهم بالحفاظ على الأمن داخل المدن وفي الواحات ومرافقه محمل الحج وجباية الضرائب، ومن أشهر قادة باشي بوزوق ؛ محمد علي باشا والي مصر (١٢٢٠-١٢٦٤هـ/١٨٠٥-١٨٤٨م)الذي توجه لمصر على رأس جيش باشي بوزوق لإخراج القائد الفرنسي نابليون بونابرت منها. (صابان، المعجم الموسوعي، ص ٥٦.

(٤) الأرناؤوط:أو الأرناؤود : وأصل الكلمة أرناؤوس وهي كلمة يونانية حرفت إلى التركية أرناؤوط، وهو اسم يطلق على سكان ألبانيا، وبعد الفتح العثماني للبلاد العربية سنة٩٢٣هـ/١٥١٧م هاجر كثير من الأرناؤوط إلى الولايات العربية واستقروا بها واندمجوا مع بقية عناصر السكان، ولاتزال بعض العائلات في بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز وبلاد المغرب تحتفظ بهذا الاسم .(موفاكو، الألبانيون،ص٦٧٧، ٦٨٢.

(٥) ديدبيه، رحلة ص١٣١؛ الرفاعي، ينبع، ص٢٩٨. والأفندي: كلمة ذات أصول بيزنطية تسربت إلى الأتراك، فاندمجت في التركية، وقد أطلقها العثمانيون في القرن ٩هـ/١٥م على المتعلم وحلت محل كلمة جلبي، وفي القرن ١٣هـ/١٩م أطلقت على الأمراء العثمانيين والموظفين وصغار ضباط الجيش، وفي أواخر العهد العثماني كانت تضاف إلى الاسم للاحترام والتبجيل، ولايزال هذا التعبير من الألفاظ الدارجة على ألسنة الناس في بلاد الشام، (الخطيب، معجم المصطلحات، ص٣٦؛ المصري، معجم الدولة العثمانية، ص٣٤، ٣٥.

(٦) محمد علي باشا: بن إبراهيم أغا بن علي المعروف بمحمد علي الكبير، مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، من أصل ألباني، ولد في بلدة قولة التي تتبع الدولة العثمانية، وهي تتبع اليونان حالياً، وذلك سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م، جاء لمصر وكيلاً لرئيس قوة من المتطوعة من قولة تساعد في اعتداءات الفرنسيين على مصر، أصبح والياً على مصر سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، انتدبته الدولة العثمانية لمحاربة الدولة السعودية الأولى، وشارك في حرب

المدينة المنورة(١) خلال حربه مع الدولة السعودية الأولى(١١٥٧-١٢٣٣هـ/١٧٤٤-١٨١٨م)، وكان قائد هذه الثكنة عند زيارة شارل ديدييه هو إسماعيل بك؛ وهو بنباشي (٢) تركي أثنى ديدييه على كرم أخلاقه وضيافته له بالقهوة والشيشة(٣).

وبالقرب من هذه الثكنة، كانت توجد أماكن لسكن الجنود غير النظاميين، وقد كانت عبارة عن طواحين بناها محمد علي لقواته ثم أصابها الإهمال بعد رحيله(٤).

ومن الشخصيات العسكرية البارزة التي شاهدها ديدييه في جدة السنجق(٥) كرد عثمان آغا؛ وهو قائد للخيَّالة غير النظامية التي كانت تعسكر على طريق مكة المكرمة على بعد فراسخ(٦) من جدة، وكان عدد هؤلاء الخيالة يصل إلى ألف فارس أو يزيد إلى ألف ومئتي، ورغم أنه عُهد إليهم بحفظ الأمن في مدينة جدة وماحولها إلا إنهم كانوا يقومون بإثارة الفوضى والشغب

المورة، واستولى على سورية ولكن الدولة العثمانية انتزعتها منه بعد أن جعلت له حكم مصر وراثيًّا سنة ١٢٥٧هـ/١٨٤١م، واعتزل أمور الحكم لابنه إبراهيم ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م، وأقام بالإسكندرية إلى أن توفي بها سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م، ودفن بالقاهرة،(الزركلي، الأعلام، ج(٦)، ص٢٩٨،٢٩٩؛ العجلاني، تاريخ البلاد العربية،ج(٤)، ص٣١٨-٣٢٠؛ عمر، دراسات في تاريخ مصر، ص ١٩٤،١٩٦،٢٠٨،٢١٣،٢١٥،٢٢٥.

(١) باب المدينة المنورة : أحد أبواب سور جدة الطيني الثمانية التي كانت تُفتح فجرًا وتُغلق بعد صلاة العشاء لحماية حاراتها الثلاث، وهي حارة اليمن في الجزء الجنوبي، وحارة الشام في الجزء الشمالي وحارة المظلوم بينهما، وكان باب المدينة يقع في حارة باب الشام ويستخدم للوصول إلى الثكنة العسكرية، كما كان هذا الباب يُستخدم لدخول العربات المحملة بالحجارة من المناقب المستخرجة من شمال جدة، والطين المستخرج من بحيرة الأربعين لبناء البيوت،(جدة التاريخية ثمانية أبواب تحمي حاراتها الثلاثة، جريدة الشرق الأوسط، الأحد٢٥رجب ١٤٢٥هـ/ ٢٥مايو٢٠١٤م، العدد١٢٩٦٢.

(٢) بنباشي (بيكاشي) : كلمة تركية وتعني رأس الألف، وهي رتبة عسكرية في الدولة العثمانية، استخدمت كذلك في البلاد العربية ثم استبدلت بها رتبة مقدم، ولاتزال تستخدم في الجيش التركي حتى الوقت الحالي.(دهمان، معجم الألفاظ، ص٣٧؛ صابان، المعجم الموسوعي،ص٦٦.

(٣) ديدييه، رحلة، ص١٤٥ .

(٤) ديدييه، رحلة، ص١٤٥ .

(٥) **السنجق:** كلمة تركية فارسية تعني العلم أو الراية،ويعرف حامل السنجق بحامل العلم أو الراية،أصبح في العصر العثماني يطلق على منطقة إدارية؛ باعتبار أن حكام المناطق كانوا يتخذون رايات أو أعلامًا تميزهم عن بعضهم، ثم أطلق لفظ سنجق على المنطقة التي يحكمونها، وقد طرأ تغيير على التقسيم الإداري للدولة العثمانية، فبعد أن كان السنجق هو الوحدة الإدارية الرئيسة عقب فتح القسطنطينية٨٧٥هـ/١٤٥٣م أصبحت السنجقية وحدة إدارية تابعة للولاية، والسنجق موظفا إداريًا يأتي في الأهمية بعد الوالي ويحمل لقب السنجق بك. (الخطيب، معجم المصطلحات،ص٢٥٩؛حلاق وعباس صباغ:المعجم الجامع ص١٢٠.

(٦) فراسخ:الفرسخ: لفظ فارسي أصله فرنسك، وهي مسافة معلومة اتفق على تقديرها بأنه إذا مشاها الرجل قعد واستراح، قُدرت عند البعض بـ٦ أميال وقدرها الفقهاء المسلمين بـ٣ أميال، والميل ثلاثة الآف ذراع هاشمي. (الخطيب، معجم المصطلحات، ص٣٣٧.

واضطراب الأمن إذا تأخر صرف الرواتب لهم(١)، ولحفظ الأمن، كان هناك رئيس للشرطة في جدة التقى به شارل ديدييه أثناء وجوده بها وهو عبدالله آغا(٢).

ويظهر أنه انتشرت في جدة خلال تلك الفترة التي زارها ديدييه الفرق العسكرية غير النظامية من المتطوعين أو المرتزقة(٣)، فنجد شارل ديدييه يشير إلى رئيس فرقة متطوعة في جدة وهو أحمد بيك، وكان هذا الرجل في الأصل تاجرًا ثريًا من أصول هندية، ثم خلع ثوب التجارة واكتسى ثوب الحرب، واستطاع أن يجمع تحت إمرته ألف رجل من المتطوعين يأتمرون بأمره، كما إنه قام بتسليحهم بأنواع الأسلحة المختلفة، كما كان هو نفسه يرتدي حزاماً مملوءًا بترسانة كاملة من الأسلحة وسيف تركي محدب، وقد أبدى أحمد بيك وفرقته العسكرية استعدادهم للمشاركة في حرب الدولة العثمانية – كما ذكر ديدييه–(٤).

ولعل ماجعل ديدييه يستفيض في الحديث عن أحمد بيك وفرقته المتطوعة؛ أن مسكنه كان بالقرب من مسكن شارل، وكان شارل بدافع الفضول –كما ذكر– يراقب تحركاتهم وأفعالهم واحتفالاتهم العسكرية التي يصاحبها أصوات طلقات البنادق(٥).

ومن الموظفين العثمانيين أيضًا رجال الجمارك العثمانيين الذين شكلوا عنصراً من عناصر المجتمع في ينبع، وقد أشار إليهم شارل ديدييه في معرض حديثة عن سكان ينبع من الجهنيين

---

(١) ديدييه، رحلة، ص١٦٦ .

(٢) ديدييه، رحلة ص١٧٥؛ اليافي، جدة، ص٤٥ .

(٣) كان ظهور الجند المرتزقة أو المتطوعة –وهم الذين كانوا يتقدمون للخدمة العسكرية مقابل مبلغ من المال– بسبب فساد نظام الجند السباهية (الفرسان) والجند الإنكشارية (المشاة)، ولذا اعتمد بعض حكام الولايات العثمانية على هذا النوع الثالث من الفرق العسكرية بل وحتى بعض الأمراء المحليين، وكانوا يتجمعون حول شخص يسمى بكباشي وينخرطون في سلك الجيش، وعندما سنَّت الدولة العثمانية نظام التجنيد الإجباري، ألغت نظام التطوع. (ياغي، الدولة العثمانية،ص٩١؛ أوزتونا، موسوعة الإمبراطورية العثمانية، ج(٣)، ص٤٠٩.

(٤) ديدييه، رحلة ص١٧٢، ويشير ديدييه هنا إلى الحرب التي جرت بين الدولة العثمانية ودولة روسيا، والتي عرفت عرفت بحرب القرم، وكان سببها رفض السلطان عبدالمجيد الأول(١٢٥٥–١٢٧٧هـ/١٨٣٩–١٨٦٠م) حق حماية روسيا للنصارى المقيمين في الدولة العثمانية، فقامت روسيا بإعلان الحرب على الدولة العثمانية واحتلال جزء من أراضيها، ولم تنته الحرب إلا بعد وساطة الدول الأوربية (فرنسا إنجلترا النمسا بروسيا) وعقد معاهدة باريس ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م والتي تخلت فيها روسيا عن الأراضي التي احتلتها، (حليم بك،تاريخ الدولة العثمانية، ص٢١٤،٢١٥؛ ياغي، الدولة العثمانية، ص١٣٤،١٣٥.

(٥) ديدييه، رحلة، ص١٧٢ .

الذين كانوا يعملون بالملاحة والتجارة مع موانىء القصير والسويس المصرية ويقعون في خلافات مع موظفي الجمارك في ينبع بسبب تهريبهم لبعض السلع والبضائع(١).

وكذلك الباشا العثماني في جدة(٢)، وكان يرسل من إستانبول ويقيم في جدة؛ لوجود الجمارك التي كانت تمثل موردًا هامًا من الموارد الاقتصادية في بلاد الحجاز، ووقت زيارة ديدييه كان أحمد عزت باشا(٣) هو نائب جدة، وقد ذهب ديدييه لزيارته في منزله فاستقبله استقبالاً حسناً وأكرم ضيافته بتقديم الشاي والقهوة والشراب والحلويات والشيشة، وأجلسه في غرفة مطلة على البحر تتوفر فيها وسائل الراحة من السجاد والوسائد(٤).

وكان لوالي مصر عباس باشا(١٢٦٤-١٢٧٠هـ/١٨٤٩-١٨٥٤م) (٥)قائم بأعماله وتجارته في الحجاز وهو أمين بك عينه محمد علي باشا وأبقاه عباس باشا في منصبه، وكان كولونيل(٦) سابق في المدفعية وهو على علاقة ليست بوفاق مع شريف مكة المكرمة (٧).

---

(١) ديدييه، رحلة، ص١٣٠ ؛ الفايدي، ينبع، ص٣١٧؛ الرفاعي، ينبع، ص٢٩٧،٢٩٩، وقد أشار بوركهارت لذلك قبل ديدييه .(ترحال، ج(٢)،ص٢١٢؛ محبت، ينبع، ص٥٦٥ .

(٢) طبقت الدولة العثمانية سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م في بلاد الحجاز نظام ثنائية الحكم والذي يجعل السلطة مقسمة بين الوالي في جدة والشريف في مكة المكرمة وذلك للحدِّ من نفوذ الأشراف وتوسيع نفوذ الوالي العثماني وسلطته،(اليزيدي،عوامل الهجرات،ص١٧٣؛الخالدي،الإدارة العثمانية،ص٧٣،٧٤،٧٧.

(٣) أحمد عزت باشا : كان أميراً لقافلة الحاج الشامي ومن أصدقاء الشريف عبدالمطلب، ولذا تحايل الشريف لعزل الباشا السابق (آقة باشا) واستصدار أمر سلطاني بتعيين أحمد باشا سنة ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م، وقد بنى أحمد باشا داراً بالزاهر في مكة وجعلها متنزهاً له، ثم لم يلبث أن اختلف الشريف عبدالمطلب مع أحمد باشا فأصدر السلطان أمراً بعزله وتولية كامل باشا في رجب من سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م.(السباعي،تاريخ مكة،ج(٢)، ص٦٠٠.

(٤) ديدييه، رحلة، ص١٦٢،١٦٣ .

(٥) الخديوي عباس باشا: بن طوسون بن محمد علي : ثالث الولاة من أسرة محمد علي بمصر، ولد بجدة سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م ونشأ بمصر، وتولى الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم باشا أواخر سنة ١٦٢٤هـ/١٨٤٩م، أنشئت في أيامه المدرسة الحربية في القاهرة، قتل سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م على يد مملوكين أرسلهما عمته نازلي بنت محمد علي من إستانبول لخلاف بينهما على الإرث، (الزركلي، الأعلام،ج(٣)، ص٢٦١.

(٦) كولونيل(colonel):جنرال (general) رتبة عسكرية رفيعة المستوى من رتب ضباط هيئة الأركان العامة بالقوات المسلحة توازي أو تعلو رتبة الجنرال حسب الدولة المانحة للرتبة، وقد شاع استخدامها في روسيا وكوريا الشمالية.(ويكيبيديا، الموسوعة الحرة،استرجع بتاريخ١٤٤٠/١٢/٨هـ-٢٠١٩/٨/٩م .

(٧) ديدييه، رحلة، ص١٦٩،١٧٠.

كما كان يستقر بجدة طبيب عسكري من إستانبول يدعى عطا بيك ربطت بينه وبين ديدييه علاقة طيبة لاسيما وأن هذا الطبيب كان يتحدث الفرنسية(١).

(ج) القناصل (٢):

خلال فترة إقامة شارل ديدييه في جدة، كان هناك القنصل الفرنسي روشيه ديريكور Roch et D'hericourt الذي توفي بعد فترة قصيرة من الوقت في ٩مارس١٨٥٤م وشارك ديدييه في مراسم دفنه، والقنصل البريطاني كول M. Cole الذي كان أيضًا وكيلاً تجاريًا لشركة الهند الشرقية؛ وهي الوظيفة التي تطلب وجودها لكثرة عدد المواطنين البريطانيين من الهنود المقيمين في جدة، وكان منزل ديدييه ملاصقًا لمنزل كول مما جعله يذهب لزيارته ويقدم له رسالة من بيرتون. كما ذكر ديدييه وجود عدد كبير من الهنود الذين هم مواطنون بريطانيون في جدة (٣).

(د)عامة السكان :

تفردت بلاد الحجاز عن أنحاء شبه الجزيرة العربية بمكانة دينية مرموقة؛ فقد حوت أرضها المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة، ولمَّا كانت قلوب المسلمين قد تعلقت بهمًا حبًا وشوقًا، حجًّا وعمرةً وزيارةً، فقد آثر عدد كبير من أبناء المسلمين ممن قدموا لبلاد الحرمين الشريفين لغرض أو الحج أو العمرة أو الزيارة أو للمتاجرة وطلب العلم البقاء بها والعيش فيها، ولمَّا كانت مدينة جدة تمثل ميناء الحجاز الأهم، فقد رغب بعض من الوافدين إليها الإقامة الدائمة بها، فلا عجب أن يضم المجتمع كافة الأجناس والأعراق، وبمرور الوقت وزيادة عدد الوافدين، أصبحوا يشكلون شريحة كبيرة من شرائح المجتمع(٤).

---

(١) ديدييه، رحلة، ص١٧٥؛ اليافي، جدة، ص٤٥.

(٢) عرفت بلاد الحجاز التمثيل السياسي الأجنبي سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م حين وصل أول قنصل بريطاني إلى جدة لمباشرة أعمال القنصلية هناك، فاتخذ دارًا خاصة رفع فوقها راية البريطانيين،ولم يكتمل القرن ١٣هـ/١٩م حتى تعدد التمثيل السياسي الأجنبي في جدة، وأصبح هناك قناصل لفرنسا وروسيا .(السباعي،تاريخ مكة،ج(٢)،ص٥٢٥.

(٣) ديدييه، رحلة، ص٢٢،٢٣،١٥٦،١٥٧؛آل زلفة،الطائف،صحيفة الجزيرة الإلكترونية.

(٤) اليزيدي، عوامل الهجرات، ص٤٩،٥٠؛الخالدي، الإدارة العثمانية، ص٣٠،٣١؛محبت،الحياة الاجتماعية، ص٢٥٥.

وبعد انتقال ديدييه إلى جدة وتنقله بين أحيائها وشوارعها وأسواقها، قدر عدد سكانها ما بين ١٥ إلى ٢٠ ألف نسمة(١)، وأعطى شارل تصورًا دقيقًا عن التعدد العرقي الذي ينتمي إليه مجتمع جدة، وخاصة عند ارتياده لسوق جدة التجاري الذي يحاذي البحر ويموج بالنشاط التجاري وحركة البيع والشراء، فقد آوى هذا السوق عمالة من جنسيات مختلفة من أهل النوبة وأهل حضرموت ومن العبيد الأفارقة، وكذلك من القوقازيين(٢)، وتجار البصرة ومسقط والشام وتركيا ومصر والهند واليونان بل وحتى الماليزيين واليابانيين(٣).

وبحكم الموقع الجغرافي لمدينة جدة كميناء حجازي على ساحل البحر الأحمر ولقربها من مكة المكرمة؛ فقد تبوأت مركزًا تجاريًا مرموقًا في قدوم التجار إليها من شتى أنحاء الأرض مما جعلها سوقًا رائجةً لمختلف السلع والبضائع؛ ولذلك عندما شاهدها ديدييه لأول وهلة ذكر بأنها جديرة على كل المستويات أن تحمل الاسم الذي تعرف به وهو "ميناء مكة" (٤)، وقد أفصح ديدييه عن هذا التنوع البشري لسكان جدة بقوله: "إن أغلب سكان جدة من أصول أجنبية وهم نشيطون وخبراء" (٥).

أسهم أبناء اليمن من الحضارمة في رسم ملامح مجتمع مدينة جدة التي امتزجت فيها ألوان بشرية متعددة أخرجت لوحة فنية متعددة الألوان والأجناس جمعتهم المصالح المتبادلة، وكان غالب هؤلاء الحضارمة الوافدين قادمين بدافع العمل في التجارة ومزاولة البيع والشراء في أسواق جدة ومتاجرها التي بلغت شأواً بعيداً في المجال التجاري، وبمرور الوقت، كونت تلك الجالية الحضرمية عنصراً من عناصر المجتمع، وأصبحوا يسيطرون على التجارة (٦)، ولذا جاء وصف

---

(١) ديدييه، رحلة، ص ١٣٨؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص١٠٢.

(٢) ديدييه، رحلة، ص ١٣٩.

(٣) ديدييه، رحلة، ص ١٣٩؛ مؤمنة، الأهمية التاريخية، ص٢٢٥، وكان موريس تاميزييه الذي زار الحجاز سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م مرافقاً لحملة محمد علي باشا على عسير قد أشار لهذا التنوع البشري الذي يعيشه المجتمع في جدة .(انظر: رحلة في بلاد العرب، ص٩٦،١٠٢،١٠٣.

(٤)ديدييه، رحلة، ص ١٣٧.

(٥)ديدييه، رحلة، ص ١٤٣.

(٦)تعددت الدوافع التي جعلت بعض أبناء الشعب اليمني من الحضارمة يهاجرون من بلادهم في العصر الحديث، الحديث، ومنها أسباب اقتصادية للبحث عن لقمة العيش ؛ ولاسيما إذا شهدت البلاد أزمات كالحروب الأهلية والمجاعات، ومنها النشاط التجاري لهؤلاء الحضارمة عبر مؤانئهم الرئيسة مثل : قنا والشحر، والتي أغرت بعض تجار الحضارمة بالإقامة الدائمة في البلاد التي يتاجرون معها مثل شرق أفريقيا وجزر أندونسيا وبلاد

وصف ديديبيه معبرًا عن هذا الاحتكار وتلك السيطرة بقوله : "يكاد الحضارمة والهنود على وجه الخصوص يسيطرون على التجارة في جدة؛ الحضارمة شعب متزمت، لكنه حِرفِّي" (١).

وقد أفصحت عبارة ديديبيه هذه أيضًا عن شريحة أخرى من الشرائح التي كونت مجتمع جدة في القرن ١٩م وهم الهنود الذين شاطروا الحضارمة العمل في التجارة حتى بلغوا درجة عالية من الثراء والغنى، ولذا نجد شارل يعبر عن هذا الثراء بقوله : "وليس نادرًا أن تجد ثروة أحد الهنود بلغت ثلاثة أو أربعة ملايين فرنك"(٢)، ويكاد يكون أغناهم التاجر فراج يوسف الذي امتلك عشر سفن ذوات حمولات كبيرة(٣) .

وعلى النقيض من هؤلاء الهنود الأثرياء الذين بلغوا ماهم فيه من الثراء بجِدِّهم ومثابرتهم في مجال التجارة، كان هناك عدد من أبناء جلدتهم ممن يشكلون عالة على أفراد المجتمع في جدة؛ فقد آثر هؤلاء الهنود، وكان غالبهم من الحجاج الذين قدموا لأداء فريضة الحج ونفذ ماكان معهم من المال حب التسول وطلب المال دون جهد بدلاً من العمل وكسب الرزق، وكان منظرهم مزعجًا للناظرين إليهم، ويصف ديديبيه هؤلاء بقوله :"ولم يزعجني إلا المتسولون الذين انتشروا في كل أحياء المدينة ويكادون يكونون جميعًا من الهنود قدموا من أوطانهم للحج، وتقطعت بهم سبل العودة لنقص المال، ولمَّا لم يكن لهم أي موارد فإنهم ظلوا عالةً على الناس"(٤).

غير إن هذه النظرة القاتمة لحجاج الهنود عند ديديبيه ووصفهم بالكسل والعيش على الهبات تبدلت حين عمد إلى أحد الخياطين البارزين القادمين من كشمير في جدة مما جعله ينصف في

الحجاز، التي حقق فيها الحضارم نجاحات كبيرة في المجال التجاري، وقد عرف عن الحضارم الجِدُّ والمثابرة والصبر ؛ فيبدأون حياتهم ببعض الأعمال المنزلية أو العمل عند أصحاب المحلات التجارية ثم يتقنوا مهارة العمل إلى أن يصبحوا هم أصحاب المحلات التجارية، وقد حققوا بذلك ثراءً ماديًا كبيرًا، وأصبحت الجالية الحضرمية في بلاد الحجاز ذات نفوذ اقتصادي مرتفع ومكانة اجتماعية مرموقة، كما تفوق بعض أبنائهم علميًا بل وأصبح لهم تأثير في توجيه مسار الحكم والسياسة.(الجوهي، الحضارم، ص٣١،٣٨،٢٦١،٢٦٢.

(١) ديديبيه، رحلة، ص١٧٤ .

(٢) فرنك: أقدم وحدة نقدية في فرنسا حيث تم اعتماده سنة٧٦٣هـ/١٣٦٠م واستخدم الذهب عيار ٢٤ في صناعته، وكان وزنه ٣،٨٨غرام، وقد ظل الفرنك العملة الرسمية لدولة فرنسا حتى عام١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، تاريخ العملة الفرنسية، موسوعة وزي وزي، http://www.wezwezi.com تاريخ الاسترجاع ١٤٤٠/١٢/٢١هـ-٢٠١٩/٨/٢٢م.

(٣) ديديبيه، رحلة، ص١٧٤ .

(٤) ديديبيه، رحلة، ص١٤٢ .

عبارة أخرى هذه الفئة الجادة بقوله : "إلا إن بعضهم –يقصد الهنود– وهم قلة قليلة يمتهنون مهناً حضرية مختلفة"(١)

وعلى النقيض تمامًا من هؤلاء الحجاج الهنود المتسولين الذين مالوا إلى حياة الكسل والقعود عن طلب الرزق، كان هناك أشباههم من الحجاج القادمين من مصر والنوبة؛ والذين أقعدهم كذلك قِلُّ ذات اليد عن العودة لبلادهم، ولكن لم يفعلوا ما فعله حجاج الهند، بل دأبوا على التكسب وجمع المال للعودة إلى بلادهم(٢).

ويمتد التنوع البشري في جدة ليشمل جماعات من أهالي النوبة الذين استقروا خارج مدينة جدة على الطريق إلى مكة المكرمة(٣).

– نساء المجتمع :

لمَّا كانت المرأة تمثل نصف المجتمع وشريكة الرجل في سائر شؤون الحياة الاجتماعية؛ فكان من البديهي أن يدون ديدبيه ملاحظاته على نساء المجتمع الحجازي، وإن كانت كتابته عن المرأة لم تنل نصيبًا وحظًا وافرًا من الوصف والحديث، ولعل لشارل مايبرر قلة كتابته عن نساء المجتمع الحجازي؛ وهو قلة من رأى منهن في الأماكن العامة وهذه الظاهرة التي لفتت أنظاره أثناء تواجده في ميناء ينبع، فخلال الساعات التي كانت تسبق إبحاره من ينبع إلى جدة، كان يقضي وقته في أحد مقاهيها الواقعة في أكثر شوارع ينبع ازدحاماً بالمارة، ويراقب المارة من الغادين والرائحين، فكان يمر المارة أمامه من الرجال دون النساء معبرًا عن ذلك بقوله : "وقد سنحت لي بذلك الفرصة لأرى أمام عيني، خلال عدة ساعات مرور كل السكان الذكور ولم أر أيَّةَ امرأة"(٤)

(هـ) العبيد والجواري(٥):

---

(١) ديدبيه، رحلة، ص١٤٣ .

(٢) ديدبيه، رحلة، ص١٤٢ .

(٣)ديدبيه، رحلة، ص ١٤٥.

(٤) ديدبيه، رحلة، ص١٣٠ .

(٥)ترجع جذور العلاقات الاقتصادية بين بلاد الحبشة والنوبة وبلاد الحجاز إلى العهود السابقة للإسلام، وقد ازداد نشاط هذه التعاملات التجارية بعد الإسلام حين أذن الرسول ﷺ لبعض صحابته رضوان الله عليهم بالهجرة إلى الحبشة، فكثرت الطرق التجارية بينهما من طرق بحرية تربط بلاد الأحباش بموانئ الحجاز مثل جدة والجار والشعيبي وطرق برية من خلال بلاد اليمن، ومن أشهر السلع التي لقيت رواجًا بين البلدين تجارة الرقيق ؛ الذين يباعون في أسواق الحجاز .(جريس، العلاقات، ص٤٢٠–٤٢٢.

شكل العبيد قسمًا لا يستهان به من شرائح مجتمع جدة، ولذا التفت إليهم شارل بقلمه؛ فذكر أن هناك بعض السفن التي حملت أعدادًا من العبيد من ميناء مصوع(١) ذكورًا وإناثًا، وكان غالبهم أطفالًا ما بين الرابعة إلى الثامنة ما عدا فتاة حبشية بلغت من العمر ثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا عرضت للبيع في السوق(٢).

ورغم موقف ديدييه من الرق المتعارض مع حرية الفرد إلا إنه أشاد بكرامة المعاملة التي كانت تلقاها تلك الجاريات داخل مجتمع جدة، ومن أرباب الأسرة التي تمتلكها حتى أن الأمر يصل بإحداهن إلى أن تصبح أحد أفراد الأسرة، ويبلغ الأمر مداه من إكرام هذه الجارية وعلو شأنها حين ينجب منها سيدها أبناء، فتصبح حرة(٣)؛ وإذا كان عامة الناس في بلاد الحجاز قد حرصوا على اقتناء العبيد والجواري للقيام بأعباء الخدمة وإدارة شؤون بيوتهم ومعاونتهم في شؤون حياتهم اليومية؛ فإن هذا الحرص كان أدعى عند الخاصة من عليِّة السكان وكبار أعيانها الذين كانت دورهم وسائر أملاكهم تَعُجُّ بالخدم والعبيد للأغراض ذاتها مع ماتتطلبه الحاجة من مرافقه سيدهم في تحركاته وتنقلاته وتشكيل فرقة من حرسه الخاص، فعند زيارة ديدييه لباشا جده في بيته كان العبيد والخدم ينتشرون في مدخل البيت وعلى الدرج(٤).

وتتفاوت أعداد هؤلاء الخدم والعبيد وفقاً لمكانة سيدهم الذي يقتنيهم الاجتماعية ووضعه الاقتصادي؛ فحين حلَّ ديدييه ضيفاً على الشريف عبدالمطلب في الطائف أشار للعدد الكبير من العبيد والجواري الذين كانوا ينتشرون داخل قصره حتى وصل عدد كل منهما قرابة الستين عبداً وجارية؛ وهو بلا شك دلالة على المستوى الاقتصادي والمادي المرموق الذي كان يتمتع به الشريف، وللثراء الذي يعيش فيه ذلك الشريف مامكنَّه من اقتناء هؤلاء العبيد من الخصيان وغيرهم من الخدم الذين يقومون بأعمال مختلفة(٥)، وقد أرجع ديدييه ثراء الشريف عبدالمطلب لثروة والده والده الشريف غالب، وإلى المنحة السنوية التي كانت ترسل له من عاصمة الدولة العثمانية والتي تجاوزت ٤٠٠ ألف فرنك، أما المصدر الثالث لثروة الشريف غالب –فوفقاً لما ذكره شارل– أن

(١)مصوع : ميناء على ساحل البحر الأحمر من جهته الغربية المُطِّل على قارة أفريقيا من الجهة الشرقية، وتقع مصوع حاليًا في أرتيريا شرق مدينة أسمرة التي تبعد عنها ١٠٠ كيلاً، وتعد مدينة مصوع من المدن الصناعية في البلاد وخاصة في صناعة المواد الغذائية والحبوب والبُن، كما توجد بها مصانع للنسيج.(أحمد وحسام الدين عثمان،الموسوعة الجغرافية،ج(٤)،ص١٧٧ .

(٢) ديدييه، رحلة، ص١٥١،١٥٢ .

(٣) ديدييه، رحلة، ص١٥٣،١٥٤ .

(٤) ديدييه، رحلة، ص١٦٣ .

(٥) ديدييه، رحلة، ص٢٤٥ .

الشريف عبدالمطلب عند إعادة بناء قصر والده الذي هدمه محمد علي باشا وجد بئراً مليئة بالذهب كان قد أخفاه جده الشريف مساعد داخل البئر (١).

ويؤكد ديديه في موضع آخر على هذا العدد الكبير من الخدم الذين يعجُّ بهم قصر الشريف عبدالمطلب؛ فعند دخولهم القصر كان في استقبالهم وكبير الخدم وبقية العاملين في قصر الشريف(٢).

ثانيًا : السكن والمرافق الاجتماعية:

غلب على الطابع العمراني لمدن بلاد الحجاز بساطة البناء، ومحدودية أدوات البناء والعمارة التي كانت متواجدة غالباً في البيئة المحلية من الحجارة والطين والأخشاب، ولكن ذلك لم يمنع من وجود بعض المباني العمرانية التي تجلت فيها فخامة البناء واتساع مساحته ولاسيما دور الأشراف وقصورهم، وقد أشار ديديه في رحلته لكلا النمطيين المعماريين للمباني والدور والمرافق العامة.

(أ) الدور والمنازل:

رغم إن بلدة الوجه كانت أولى البلدان الحجازية التي نزل بها ديديه إلا إنه لم يرسم ملامحًا للمساكن في بلدة الوجه، ولم يعط تفصيلات عن النظام العمراني السائد هناك، وكل ماذكره في أسطر رحلته وجود قصر يحمل اسم الوجه على بعد فرسخ أو فرسخين إلى داخل البلدة(٣)، ولكن عندما زار ديديه ينبع وتجول في شوارعها أفاض نوعاً ما وصف البناء العمراني لمساكنها ذاكرًا بأن تلك المساكن قد اعتراها الخراب وتَهَدُمُ بعض أجزائها دون أن يعير أصحابها هذا الأمر اهتمامًا منهم بمحاولة ترميمها واصلاحها، وهي في ذلك تتشابه مع بعض مدن البلاد العربية التي زارها ديديه مثل: مصر وطرابلس الغرب والمغرب وسوريا، ولاشك إن لمنظر هذه المنازل تأثيره السلبي، في إضفاء منظر كئيب على الناظر إليها(٤).

وقد بلغت عمارة بيوتات ينبع الميناء حدًّا من السوء جعلت ديديه يُفضِّل عليها بيوت ينبع النخل التي بنيت بالحجارة الصلبة(٥)، وهي على حد قوله: "إن صح التعبير أحسن بناء من بيوت المدينة نفسها –يقصد ينبع البحر–ولكن ليس بدرجة كبيرة"(٦)، ولكن ديديه حين تطرق

---

(١) ديديه، رحلة، ص٢٤٥ .
(٢) ديديه، رحلة، ص٢٤٦ .
(٣) ديديه، رحلة، ص١١٦ .
(٤) ديديه، رحلة، ص١٢٥؛ الفايدي، ينبع، ص٣١٥،٣١٧؛ الرفاعي، ينبع، ص٢٩٤؛ عبدالحميد، الأوضاع الاقتصادية، ص٤١٥.
(٥) ديديه، رحلة، ص١٢٨.
(٦) ديديه، رحلة، ص١٢٨.

للحديث عن بيت حاكم ميناء ينبع جاء وصفه له مغايراً عن وصف بيوت العامة من السكان التي عبر عن تواضعها ورداءتها، أما بيت الحاكم، فقد عدَّه شارل بأنه أجمل بيت في المدينة أقيم في مكان متميز قرب البحر(١).

وحين تحدث عن ينبع النخل ذكر أن الأغنياء من السكان يحرصون على اقتناء مساكن ريفية لهم وحدائق يسيرون إليه بالحمير ويقضون فيها شهرًا في السنة وقت موسم التمر(٢).

انتاب ديدييه شعور بالدهشة والانبهار حين وقع ناظريه على مدينة جدة لأول وهلة، فقد رسم ديدييه في مخيلته من خلال ما تردد على مسامعه في القاهرة أن جدة لا تعدو أن تكون حيًّا صغيرًا، ولذا عبَّر عن هذه الدهشة بقوله :"كانت دهشتي كبيرة عندما وجدتها على العكس مدينة جميلة مكينة البناء جيدة التأسيس تعج بالسكان نابضة بالحياة"(٣)، وحين تجول ديدييه في جدة، أعطى وصفًا لمساكنها وبيوتها مغايرًا لوصفه لمساكن ينبع وبساطة بنائها، وكانت تلك البيوت تنتظم وسط أحياء متعددة كان أكبرهما حي الشام، وهو يقع على الشمال في الطريق إلى بلاد الشام، وحي اليمن ويقع في الجنوب باتجاه المتجه إلى اليمن؛ فقد جاءت بيوت جدة قوية البنيان متينة الأركان متعددة الطوابق، وأبواب الدور مبنية من الحجر على شكل أقواس ذات مظهر جميل، ويكتمل جمال الفن العماري للبيت الحجازي في جدة بوجود تلك النوافذ الواسعة ذات الغطاء الخشبي المقسم إلى فراغات تسمح بدخول الهواء والضوء إلى داخل البيت(٤)، ولتضفي خصوصية تتناسب مع تعاليم الشريعة الإسلامية بالحفاظ على من بداخل البيت من النساء من أن يراهن من بخارج الدار من الرجال غير المحارم، في حين أن تلك النوافذ تمكن من بداخل

(١) ديدييه، رحلة، ص١٣٢.

(٢) ديدييه، رحلة، ص١٢٨.

(٣) ديدييه، رحلة، ص١٣٧، وقد وصف عمارة جدة تاميزييه وأعجب بسعة وتخطيط شوارعها ونظافتها.(رحلة في بلاد العرب،ص٩١،٩٢.

(٤) عُرِف هذا النوع من الأعمال الخشبية التقليدية باسم الرواشين، وانتشر استخدامه بكثرة في بلاد الحجاز في القرنين ١٣–١٤هـ، وكلمة روشان فارسية وأصلها روزنة بمعنى منفذ الضوء، ويُقصد بها الكتلة الخشبية التي تُغطي فتحة واسعة في جدار البيت نافذة أو شرفة لتسمح بدخول الهواء والضوء إلى داخل البيت، ولتحجب رؤية من بداخل البيت، وكان من أهم وظائف الروشان توفير الخصوصية لأهل البيت، وقد أبدع المعماريون المسلمون في زخرفة هذه الرواشين بأشكال وطرق متعددة منها الأشكال النجمية المتشابكة وزخرفة المفروكة العدلة وزخرفة الطبق النجمي ذي الثماني كندات والزخارف النباتية ؛ كزهرة السوسن وأشكال سعفة النخل بطرق التجميع والتفريغ والتعشيق والحفر والخرط والسدائب .(خطابي،الأعمال الخشبية،ص١٩٦ .

البيت من رؤية من بخارجه والنظر إلى الشارع المُطِّل عليه الدار، وقد شبَّه ديديه نوافذ تلك البيوت بشرفات القاهرة ومشربياتها(١).

وتجدر الإشارة إلى أن نظام الرواشين انتشر في بيوتات المدن الحجازية، ولم يكن قاصرًا على جدة ولاسيما في مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف وبعض البلاد العربية، وذلك لذات الفوائد التي كان يحققها ذلك الروشان لأهل البيت القاطنين به، يضاف لذلك أن بعض هذه الرواشين حوت بروزات خارجية بها فتحات لوضع شراب الماء بها ليصبح الماء باردًا بدخول الهواء إليه، كما إن بعض هذه الرواشين أُضيف لها أرفف من أعلاها لتخفيف حرارة الشمس الساقطة عليها في الصيف وحمايتها من المطر في الشتاء، كما إن بعضها حوى مرازب لتصريف مياه الأمطار . وقد استمر هذا التقليد المعماري في بلاد الحجاز إلى وقت قريب وعاد في العصر الحديث بشكل جمالي وتقليد تراثي في بعض البيوت الحديثة التي بنيت في مدن الحجاز حديثًا، كما أضيف لها بعض قطع الزجاج الملون (٢)، وقد أشار ديديه إلى أن تلك النوافذ الخشبية قد طُليت بألوان زاهية تتناسق مع اللون الأبيض الذي طُليت به جدران البيوت(٣).

ويتعمق ديديه في وصف تلك الحواجز الخشبية التي امتدت لتحيط بأسوار بعض أسطح البيوت في جدة شأنها شأن النوافذ الخشبية، وكانت النساء تصعد لتلك الأسطح لاستنشاق الهواء الطلق دون أن يقع نظر أحد غريب عليهن، وضرب شارل مثالاً على تلك الأسطح بالمنزل الذي كان يسكنه أحد أشراف مكة المكرمة(٤).

وخلال إقامة ديديه في جدة أقام في منزل قريب من باب المدينة في منطقة مرتفعة من حي الشامي : وهو منزل أقام فيه قبل ذلك قنصل فرنسا السابق، ولكنه يبدو أنه أصبح مهجورًا وسكنًا للعصافير كما ذكر ديديه، وهذا المنزل يمتلكه أحد الرجال المقيمين بمكة المكرمة وتم استئجاره من خلال وكيله في جدة، وقد تمكن ديديه ورفاقه من الانتفاع بغرفتين منه للإقامة بها مستغلين ما كان معهم من فرش وسجاد؛ أما الطباخ المرافق لهم (غاسبارو) فقد عمد إلى الاستفادة من المطبخ الموجود في سطح المنزل في حين اختار الخدم المكان المناسب للإقامة منه(٥).

---

(١) ديديه، رحلة، ص١٣٨؛ إسماعيل، جدة، ص٥٥،٥٦؛وقد أوردت المؤلفة تاريخ قدوم ديديه لجدة ١٢٣١هـ والصواب ١٢٧٠هـ؛ اليافي، جدة، ص٤٤؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص١٠٢،١٠٣.

(٢) للتوسع في هذا الموضوع انظر :خطابي،الأعمال الخشبية،ص١٥٦.

(٣) ديديه، رحلة، ص١٣٨؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص١٠٣.

(٤) ديديه، رحلة، ص١٣٩ ؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص١٠٣.

(٥) ديديه، رحلة، ص١٤٩.

وعلى مقربة من سكن ديديه كان هناك منزل لإقامة علماء كان غالبهم من الأفارقة السودانيين القادمين إلى أداء فريضة الحج، وكانوا يؤدون طقسهم بشيء من الأغاني الموسيقية مثل الطبلة والناي(١).

وعلى الجانب الآخر من إعجاب ديديه بتلك البيوت الحجازية في جدة، وعلى بعد مسافة قصيرة منها خارجها وباتجاه باب مكة(٢)، دون شارل وصفاً معاكساً لما شاهده من الأكواخ المصنوعة من القش وسعف النخل وجذوعه والتي انتشرت على طول الطريق الصحراوي، وقد اتخذها أهالي النوبة سكناً لهم ممن يعملون في الميناء والسوق ويشاركهم في ذلك بعض الأسر الفقيرة، والنساء الفقيرات وهي تتشابه مع الأكواخ التي رآها في السويس والطور وينبع(٣).

أما الطائف، فقد عرفت فخامة البناء والعمارة الذي تجسد في قصر الشريف عبدالمطلب مما جعل ديديه يستفيض في وصفه وصفًا دقيقًا لأغلب تفصيلاته ابتداء من المدخل الذي يُرتقى إليه بسبع أو ثمان درجات(٤)، ثم الدخول إلى مجلس صغير فُرش بالسجاد النفيس والأرائك المصنوعة من الحرير الأخضر الموشح بخيوط الذهب؛ وهي تتشابه مع الموجود في منزل التاجر محمد شمس الدين، وقد عُلِّق على أحد جدرانه سيفًا تركيًا مرصعًا بالأحجار الكريمة أهداه السلطان للشريف(٥).

ثم أشار ديديه لنموذج آخر من فخامة البناء اتضح في منزل شريف مكة السابق ابن عون(٦) والذي كان تخطيطه المعماري مقارنة بغيره من المنازل يرتقي لأن يُسَمى قصرًا(١).

---

(١) ديديه، رحلة، ص١٥٠.

(٢) باب مكة المكرمة: أحد أبواب سور جدة الثمانية يقع في وسط جدة (منطقة جدة التاريخية) ويعَدُّ بوابة جدة الشرقية، كان معبراً للجنائز المتجهة إلى مقبرة شيخ الأسد في تلك الناحية خارج السور. (باب مكة المكرمة،ويكيبديا الموسوعة الحرة،استرجع بتاريخ١٤٤٠/١٢/٢١هـ–٢٠١٩/٨/٢٢م.

(٣) ديديه، رحلة، ص١٤٥، كذلك أشار موريس تاميزييه سابقاً إلى رداءة بناء هذه الأكواخ، وعدم ملائمتها لسكنى بني البشر.(رحلة في بلاد العرب،ص١٣٧.

(٤) ديديه، رحلة، ص٢٤٦.

(٥) ديديه،رحلة، ص٢٤٦.

(٦) ابن عون :محمد بن عبدالمعين بن عون بن محسن، من أمراء مكة وأشرافها من بني الحسن، وهو جد الأشراف الأشراف من ذي عون ولد بمكة المكرمة سنة ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م ونشأ بها، وانتقل للإقامة بمصر زمن ولاية محمد علي باشا عليها فتشفع له عند السلطان العثماني ليوليه إمارة مكة المكرمة فتم لك سنة

وعند خروج ديديه وأفراد قافلته من الباب المقابل(٢) للباب الذي دخلوا منه، وهو باب الريع أشاد بقصر شبرا التاريخي(٣) وهو مثل اسم قصر خالد باشا الذي يبعد عن القاهرة ثلاثة أميال، وكان كما وصفه قصرًا ضخمًا أبيضًا تحيط به حدائق خضراء كثيرة الأشجار(٤).

وعندما عقد شارل مقارنة بين بيوت مكة المكرمة والطائف وتجول بالمنزل الذي نزل فيه وهو منزل شمس الدين ذكر أن هناك تشابهًا في الأنماط المعمارية لدور كلتا المدينتين إلا إن بيوت الطائف كانت أكثر رونقًا ومتانةً، ويتألف البيت الذي سكنه ديديه من ثلاثة طوابق؛ خُصِصَ الطابق الأول لاستقبال الزوار والطابقان الآخران لسكن الحريم والخدم، وأما السطح، فقد التف حوله جدار على شكل داريزين(٥) يطل على المدينة بأسرها(١)، وهو هنا يتشابه مع أسطح منازل جده التي ذكرها ديديه آنفاً عند زيارته لها .

١٢٤٣هـ/١٨٢٧م، ثم عزل عنها وعاد إليها فاستمر بها حتى سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م وعزل فتوجه لإستانبول للإقامة بها حتى سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م ؛ حيث أصدر السلطان العثماني مرسوماً بإعادته لشرافة مكة وبقي بها حتى وفاته سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م .(رفعت باشا، مرآة الحرمين،ج(١)، ٣٦٦؛غوري،حكام مكة، ص٣٠١-٣٠٣.

(١) ديديه، رحلة، ص٢٥٠،٢٥١.

(٢) ذكر مترجم الرحلة أن اسمه باب الحزم وهو الباب الذي يؤدي لقصر شبرا.(ص٢٧٠حاشية رقم (١)، وكان للطائف ثلاثة أبواب باب الريع وباب الحزم وباب ابن عباس.

(٣) قصرا شبرا : يقع قصر شبرا التاريخي خارج سور الطائف القديم، إلى الشمال الشرقي منه، وشبرا هي المنطقة الممتدة على شكل مستطيل يفصلها من الناحية الشمالية حي الفيصلية، الطريق الممتد بين المطار وشارع الجيش، وحدها الجنوبي يطل على ميدان باب الحزم وقصر النيابة، أما الحد الشرقي فيبدأ بالمرتفعات المقابلة لحي الفيصلية من الجهة الجنوبية، ومن الجهة الغربية فإن شارع شبرا الرئيسي يفصل حي العقيق وحي العزيزية، وكان اختيار موقع القصر آنذاك يعود إلى خصوبة الأرض المحيطة به وتوسطه بين بساتين شبرا، وامتاز القصر بمقربة من ثلاث أبيار: بئر المقداد وبئر الزبير وبئر عكرمة، كان قصر شبرا أحد القصور التي سكنها الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله لإدارة شؤون الحكم من هذا القصر أثناء اقامته لموسم الصيف ثم اشتراه الملك فيصل يرحمه الله فأصبح من أملاك الدولة، وهو الآن تابع لهيئة السياحة ليكون مقراً لمتحف الآثار في محافظة الطائف، يتكون القصر من طابق قبو تعلوه أربع طوابق إضافة لملاحق خارجية وحدائق ويضم حوالي ١٥٠ غرفة، كما يضم القصر متحفاً يحوي أيضاً على مجموعة من القطع الحجرية والفخارية ولوحات من النقوش والكتابات الصخرية.(القثامي،تاريخ الطائف،ص٦٨؛ مقال "بالصور قصرا شبرا، صحيفة المواطن الالكترونية، ٢٠١٥/٧/١٠م، http:www.almowaten.net استرجع بتاريخ ١٤٤١/١٠/١١هـ.

(٤) ديديه، رحلة، ص٢٧١؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص١٠٨.

(٥) داريزين: لفظ فارسي يطلق على الحاجز المصنوع من قضبان الحديد المثبتة بشكل متعامد على أطراف السلالم (الدرج) والشرفات كحاجز وقائي،(الخطيب، معجم المصطلحات، ص١٧٧.

ويبدو من خلال وصف ديدييه لبقية منازل الطائف أن يدَ الإهمال والخراب قد أعملت فيها؛ فهي كما ذكر مئات من البيوت ليست ضخمة ونصفها مهدم وبُنيت حول ساحة مربعة تخترقها شوارع ضيقة غير منظمة(٢).

في قرية سَوْلة(٣) وهي من المحطات التي توقفت عندها قافلة ديدييه كان منزل الشريف حامد، ولما كان الشريف حامد أحد مرافقي تلك القافلة، فقد استضافهم في منزله الذي كان يَخْلُد إليه بعيدًا عن أعباء العمل في مكة المكرمة ويأنس بالاسترخاء فيه لفترة من الوقت، وقد أعطى ديدييه تفاصيلاً واضحةً لمنزل الشريف حامد الذي كان أشبه ما يكون بعدد من البيوت المنفصلة التي تفصل بينها جدران وأفنية خصص أحد هذه البيوت للحريم، والآخر للخدم من الرجال والثالث، كان بمثابة ديوان لجلوس رب الأسرة فيه في النهار واستقبال الضيوف والزائرين وهو المكان الذي اختاره شارل للمبيت فيه، وكان يتألف من غرفة في الطابق الأول ومصطبة فوقها، وحول الغرفة ديوان للجلوس، وهناك قطع من البورسلين والزجاج الأبيض في طاقات محفورة في الحائط، وخمسة عشر سجادة مفروشة(٤).

وفي الهَدَا (٥) نزلت قافلة ديدييه في منزل كان قد قام ببنائه أحد الضباط الروس(٦)، وقد أبدى ديدييه غرابته من بساطة البناء العماري لهذا البيت الذي لم يحاول بانيه أن يظهر فيه تأثير العمارة الأوربية، وقد استخدمت الحجارة في بنائه، وكانت مساحته صغيرة لاتتجاوز عدد من

---

(١) ديدييه، رحلة، ص٢٥٠؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص١٣٩.

(٢) ديدييه، رحلة، ص٢٥٠.

(٣) سولة: ونتطق اليوم بفتح السين المهملة؛ عين جارية بأسفل وادي نخلة اليمانية، وسكانها من الزواهرة بطن من زبيد من حرب دخل في هذيل، وجُلُّ ملكها للأشراف، (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج (٤)، ص٢٥٤.

(٤) ديدييه، رحلة، ص٢٨٣.

(٥) الهدا: الَهَدَأةُ : من الهدوء، فرعة واسعة على ظهر السراة بين مكة المكرمة والطائف، تبعد عن الطائف ١٨كيلاً غرباً، وتشتهر الهدا بجمال جوها ؛ فصيفها بارد وشتاءها قارس، ولذا تعد من أجمل مصائف المملكة، وتشهد اليوم نهضة عمرانية متواكبة مع نهضة البلاد من تعبيد للطرق وإنارتها وإنشاء المدارس والمستوصفات والفنادق والحدائق والمنتجعات السياحية والعديد من الخدمات الأخرى، ولها إمارة تابعة للطائف وسكانها من ثقيف وقريش. (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج(٩)، ص١٦٢؛ جريس،القول المكتوب،ج(١٣)،ص١٠٤.

(٦) كان هذا الضابط الروسي قد فرَّ من القيصر نيقولا بعد أن تورط في فتنة عسكرية سنة١٢٤١هـ/١٨٢٥م، ثم فرَّ إلى إستانبول ولكنه خشي على نفسه فأعلن اعتناقه للإسلام، وفرَّ إلى الحجاز ليعيش بها فترة طويلة ثم عاد إلى إستانبول فمات بها.(ديدييه، رحلة، ص٢٣٤.

الغرف الرئيسة في الطابق الأرضي التي غُطِيت أرضيتها بالبسط، وأمام البيت مسطبة(١)، ويحيط به عدد الأفنية التي تطل الغرف عليها(٢).

كان المنزل الذي نزل فيه ديدبيه في الطائف يحمل بعض علامات الفخامة، فأُدخل إلى مجلس يطل على فناء مرصوف ببلاطات كبيرة، وفي وسطه بركة من الرخام فيها نافورة مياه، وقد فُرش المجلس بسجاد أحمر وأسود جميل وانتشرت فيه أرائك من الحرير الأخضر المطرز بخيوط ذهبية، وكانت هناك أربعة قناديل مضاءة تتدلى من السقف وشمعدانان ضخمان للشموع (٣).

ثم تم تقديم ضيافة لهم تتشابه مع عادات الأوربيين في الجلوس على مائدة وكراسي وصحون وسكاكين وشوكات وملاعق وقدم لهم الخروف المحشي(٤).

وكانت الغرفة التي أُعدت له ذات تنظيم وترتيب وتحوي أسِرَّة أوربية والمنزل ملك تاجر هندي اسمه محمد سيد شمس الدين كان قد غادره لمنزل آخر(٥).

– حصن الشريف غالب بالطائف:

وقد بنى الشريف غالب(٦) مقرًا له في الطائف له أربعة أبراج تحصينية في جهاته الأربعة، الأربعة، وقد اتخذه محمد علي سكنًا له عند قدومه إلى الطائف (٧).

---

(١) مصطبة:يقصد بها المنصة التي يقف عليها السلطان أو الحاكم عامة أثناء استقبال الوفود أو استعراض القوات.(الخطيب، معجم المصطلحات، ص٣٩٦ .

(٢) ديدبيه، رحلة، ص٢٣٤.

(٣) ديدبيه، رحلة، ص٢٤٠.

(٤) ديدبيه،رحلة، ص٢٤٠،٢٤١.

(٥) ديدبيه،رحلة،ص٢٤١.

(٦) الشريف غالب : بن مساعد بن سعيد الحسيني، من أمراء مكة المكرمة وليها بعد وفاة أخيه سرور سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م، وفي أيامه هاجمت قوات الإمام سعود بن عبدالعزيز مكة، فقاتلها الشريف غالب، فهُزم وتراجع إلى جدة وأظهر الطاعة للإمام سعود، فعاد لمكة أميراً عليها، واستمر في الإمارة إلى أن زحف محمد علي باشا بجيش كبير لقتال السعوديين فتحول الشريف عن ولائه لآل سعود فاستخدمه محمد علي، ثم قبض عليه وأرسله لمصر سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م،ثم أرسل لإستانبول فنفته الدولة إلى سلانيك، حيث توفي بها سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م،(دحلان، خلاصة الكلام، ص٢٦،٢٦٢،٢٦٣؛ رفعت باشا، مرآة الحرمين،ج(١)،ص٣٦٦؛ الزركلي، الأعلام،ج(٥)،ص١١٥.

(٧) ديدبيه، رحلة، ص٢٥١.

أوضح ديديه أن هناك فارقا بين بيوت مكة المكرمة عن بيوت الطائف وهو أن بيوت الطائف ليس لها طابق أرضي وإنما يستقبل الضيوف في الطابق الأول كما حدث معه عندما سكن في بيت أسرة شمس الذين انتقلوا منه لمنزل آخر لهم(١).

ويؤكد ديديه أيضًا تخصيص الطابق الأول لإقامة الضيوف بما ذكره عند خروجه من الطائف والتوقف في قرية لقيم؛ حيث نزل أفراد القافلة في بيت رجل اسمه قاري –وهو على علاقة ليست بوفاق مع التاجر محمد شمس– من تخصيص غرفة كبيرة في الطابق الأول في بيته الريفي مفروشة بالسجاد(٢).

(ب) المرافق الاجتماعية :

– الأسوار

كان السور الذي أحاط بميناء ينبع عند زيارة ديديه قد اعتراه الخراب بتهدم بعض أجزائه تهدمًا جعل ديديه يوقن بأنه على وشك السقوط، وحتى الأبراج التي أقيمت على السور لم تكن بأفضل حالاً من بقية أجزائه(٣).

ويظهر من خلال وصف ديديه لسور جدة أن هناك فارقًا بينه وبين ما كان عليه سور ينبع عندما شاهده؛ وقد تهدم في بعض أجزائه واعتراه الخراب، في حين أن السور الذي أحاط بجدة كان مرتفعاً مبنياً بناء سميكاً، ومصاناً صيانة جيدة وعليه أبراج حالتها جيدة كما حُفرت قبله خنادق عميقة' وهو ماجعل ديديه يعترف بفضل هذا السور في توفير الحصانة والحماية لجدة من أي اعتداءات أو هجمات خارجية، وقد دلل على كفاءة سور جدة ومقاومته خلال محاولة قوات الدولة السعودية الأولى لضم الحجاز؛ ولكن شارل أقرَّ بأن متانة هذا السور تتجلى في الحروب الداخلية، ولكن حين يتعرض لقصف مدفعة أوربية سيكون ضعيفاً في مواجهتها(٤).

---

(١) ديديه، رحلة، ص٢٦٢.

(٢) ديديه، رحلة، ص٢٧١، وكان خروجه من الطائف يوم الخميس ٢مارس الخامسة عصراً.

(٣) ديديه، رحلة، ص١٢٥؛الفايدي،ينبع،ص٣١٦؛ الرفاعي، ينبع، ص٢٩٠،٢٩٤، ولعل ذلك الخراب ناتج عما تعرضت له ينبع خلال حملة محمد علي باشا على بلاد الحجاز لمحاربة الدولة السعودية الأولى بقيادة ابنه طوسون سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م، فقد كانت ينبع أول ميناء حجازي وصلته تلك الحملة وقد أعملت المدفعية ضرباً وقذفاً على البلدة وساكنيها حتى فرَّ أهلها منها، وقد صور جيوفاني فيتاني ذلك المشهد تصويراً مؤثراً ؛لاسيما أنه كان شاهد عيان على تلك الأحداث.(فيتاني،حياته ومغامرته، ص١٠٩،١١٠؛ محبت، ينبع، ص٥٥٣،٥٥٤.

(٤) ديديه، رحلة، ص٣٨؛إسماعيل، جدة، ص٤٨؛ اليافي، جدة، ص٤٤.

ويوجد في سور جدة ثلاثة أبواب وهي : باب اليمن في الجهة الجنوبية منه، وباب المدينة المنورة في شمال جدة، وفي شرقها يقع باب مكة المكرمة، وهو أجمل تلك الأبواب الثلاثة بُنِيَّ عليها برجان منحوتان بمهارةٍ فائقةٍ لحراسته(١).

أما الطائف فقد أُحيطت بسور كان له عدة أبواب منها : باب الريع الذي خرجت منه قافلة ديدبيه ورفاقه بعد أن قدم لهم أفراد الحامية العثمانية التحية العسكرية(٢).

– الخانات والوكالات:

أشار ديدبيه إلى وجود عدد من الخانات(٣) أو الوكالات(٤) في جدة التي يأوي إليها أبناء السبيل والمسافرين للمبيت بها، وكانت تحوي مستودعات للأمتعة والبضائع(٥) وغالباً ما تكون هذه للتجار.

– المساجد :

كانت هناك العديد من المساجد التي ترتفع مناراتها شاهقة أمام الناظر إليها في المنزل الذي كان يسكنه شارل في جدة على مقربة من باب المدينة في حي باب الشامي(٦)، وكان أقربها لمنزله مسجد أنيق له رواقان(١).

---

(١) ديدبيه، رحلة، ص١٣٨؛ إسماعيل، جدة، ص٤٨؛ اليافي، جدة، ص٤٤. .

(٢) ديدبيه، رحلة، ص٢٤٤، وتجدر الإشارة إلى أنه بعد أن أتمَّ الملك بن عبدالرحمن آل سعود–يرحمه الله– ضم الحجاز إلى أرجاء دولته بدخول آخر مدنه تحت سلطانه وهي مدينة جدة سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م بدأت ترفرف رايات الأمن خفاقه حتى تم الاستغناء عن تلك الأسوار التي كانت تغلق أبوابها في الليل منعاً لدخول الأغراب والمعتدين فأزيل سورا المدينة وجدة سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٦م.(أبو داود،جدة،ص٧٤؛ اللحياني، المدينة، ص٢٨٣.

(٣) الخانات : الخان : كلمة فارسية الأصل تطلق على الأماكن التي تخصص لبيوت المسافرين من الحجاج والتجار، وهو عبارة عن بناء ضخم يضم مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات للبضائع، يقوم هؤلاء الحجاج والتجار بالاستراحة بالخانات ووضع أمتعتهم فيها والحصول على متطلباتهم من الطعام والشراب، وقد أنشئت الخانات على طول طرق الحاج والطرق التجارية ولكن بمرور الوقت أصبح الخان ينشىء داخل المدن، ولايزال قسم منها بكبرى المدن التجارية الكبرى كالقاهرة ودمشق، وكان في الغالب يستقبل التجار المتنقلين من مكان لآخر،(شير، معجم الألفاظ الفارسية، ص٥٨؛حلاق وصباغ، المعجم الجامع، ص٨٠.

(٤) الوكالات: الوكالة لفظ متداول عن أهل مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي يقصد به الفندق أو الخان المُعدُّ لنزول التجار وبضائعهم، وقد تشتمل الوكالة على سوق مسقوفة مثل الخان أو القيسارية في بلاد الشام أو السمسرة عند أهل اليمن، (الخطيب، معجم المصطلحات،ص٤٤٣.

(٥) ديدبيه، رحلة، ص١٤٩؛ إسماعيل، جدة، ص٦٢.

(٦) حي باب الشامي: أو حارة باب الشام، وهي المحلة التي تقع في الجزء الشمالي الغربي من مدينة جدة القديمة وكانت تقع بها بعض السفارات والقنصليات الأجنبية في السابق. (أبو داود، جدة، ص٨٥.

وفي الطائف كان أبرز معلم ديني شاهده ديديه هو مسجد عبدالله بن العباس ﷺ(٢)ابن عم الرسول ﷺ، وقد تم هدم القبة المبنية على قبره خلال حكم الدولة السعودية الأولى لبلاد الحجاز، ثم أعيد بناؤه بعد انتهاء حكمهم وطلاؤه بالكلس الأبيض، وتكريمًا لابن العباس فقد سمي باب الطائف القريب منه بنفس الاسم(٣).

– الأسواق:

حين استقر المقام بديديه في جدة في بيت القنصل الفرنسي السابق وقع اختياره على غرفة في الطابق الثاني حوت نافذة ضخمة ذات مصراعين كان ينفذ إليه من خلالها الشمس والضوء والهواء وأصوات العصافير، وكان يُرى من خلالها سوق المدينة في القسم الشمالي موازياً للبحر الذي كان يعج بأصوات الناس وجِمالهم (٤)؛ وهو الرئة التي تتنفس منها مدينة جدة، ويعد سوقاً تتلاقى فيه سلع الشرق والغرب القادمة من دمشق وبغداد ومصر وفارس والهند(٥).

---

(١) ديديه، رحلة، ص١٥٠، وحين زيارة موريس تاميزييه لجدة سنة١٢٤٩هـ/١٨٣٤م ذكر أن أهم مساجدها في تلك الفترة خمسة مساجد وهي : مسجد السلطان حسن ومسجد للشافعية يقع على أطراف بوابة مكة، ثم مسجد عكات قرب البحر، وباتجاه وسط المدينة مسجد تابع للحنفية،أما المسجد الخامس فيطلق عليه اسم محمد، وهناك مساجد أخرى تم تحويلها إلى مستودعات للذخيرة بناء على أوامر محمد علي،(رحلة في بلاد العرب،ص٨٣، ٨٤ .

(٢) مسجد عبدالله بن العباس : يقع وسط محافظ الطائف، وقد تم إنشاؤه سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م في عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء، وسُميَّ بذلك لوقوعه بجوار قبر عبدالله بن العباس ﷺ الذي توفي بالطائف سنة ٦٨هـ/٦٨٧م، وقد جُددت عمارة في العهد العثماني عدة مرات، ثم بُنِيَّ بناءً مسلحاً وتم توسعته في عهد الملك سعود بن عبدالعزيز وأعقبه الملك فيصل –يرحمها الله بتوسعته حتى بلغت مساحته ١٥ ألف متر مربع، وفي موضع المسجد كان يقع موقع لمسجد ينسب إلى الرسول ﷺ أثناء غزوة الطائف سنة٨هـ/٦٢٩م، وقد كانت تقام في المسجد حلقات تحفيظ القرآن وتدريس العلوم الشرعية، كما أقيمت بجوار المنازل والمحلات التجارية حتى أصبحت الباحات حوله سوقاً للتبادل التجاري، وعرفت ببرحة العباس.(القثامي،الطائف،ص٦٧.

(٣) ديديه، رحلة، ص٢٥٥.

(٤) ديديه، رحلة، ص١٥٠.

(٥) ديديه، رحلة، ص١٣٩؛ إسماعيل، جدة، ص١١٢؛ اليافي، جدة، ص٤٥.

– **المقاهي(١):**

شكلت المقاهي مكاناً يجتمع فيه تجار جدة على اختلاف حياتهم وتعدد لغاتهم لمناقشة قضاياهم التجارية(٢).

ومن المرافق العامة التي شاهدها ديدييه ودخل إليها واستأنس بالجلوس فيها أحد المقاهي الواقعة في أكثر شوارع ميناء ينبع ازدحامها بقرب المسجد(٣).

وعند خروج موكب ديدييه من جدة عبر باب مكة رافقه السيد كول على حصان ومصطفى أفندي على بغلة والأخوة ساوة حتى منطقة الرغامة(٤)، وكان يوم انطلاق الرحلة الخميس في ٢٣ فبراير، وكانت تتألف من ديدييه ورفيقه البريطاني والسيد دوكيه وستة من الخدم بينهم أوروبيان؛ والطباخ غاسبارو ثم الشريف حامد مع أحد أقربائه وأحمد حمودي رئيس جمالة الشريف عبد المطلب ثم اثني عشر عبداً أو خادماً من خدام الشريف مسلحون بالرماح والخناجر وثلاثة عشر

---

(١) المقاهي: انتشرت المقاهي في بلاد الحجاز على نطاق واسع وخاصة في المدن الكبرى مكة والمدينة وجدة ،وزاد انتشارها مع بداية العهد السعودي،وهي عبارة عن أماكن فسيحة يمتلكها أصحابها توضع بها الكراسي الشريط، ثم يُلف عليها أشرطة من خوص النخل الملفوف ببعض حبال القنبار الذي يسحب على الكراسي بنسق معين تظهر فيه براعة صانعه. وتُصَفُّ الكراسي على شكل حرف L. وتوضع أمام الكراسي الطاولات الخشبية مربعة الشكل التي يُخصص بها مكان مفتوح على هيئة دائرة لوضع شربة الماء التي تقدم لمرتادي المقهى بدون مقابل، ومابقي من مساحة يوضع عليه إبريق الشاي وأكوابه ودلة القهوة وفناجيلها. وقد أدت هذه المقاهي خدمات عديدة للمجتمع الحجازي ؛ وعلى رأسها الدور الخدمي(الفندقي) الذي تقوم به الفنادق في الوقت الحالي، إذ حوى البعض منها على الألحفة والمخدات استعداداً لنزول بعض المسافرين وأصحاب الحرف والعاملين والحجاج الذين يخلدون إلى الراحة والنوم بها خاصة في الأوقات المتأخرة من الليل، كما كان يعقد داخل هذه المقاهي الصفقات التجارية وعقود البيع والشراء بين أرباب العمال والحرفيين المنفذين للأعمال وإمضاء العقود وتقاضي الأجور، كما شكلت المقاهي في الحجاز جانبا من جوانب التسلية والترفيه لرجالات المجتمع التي يقضون فيها جزءا من وقتهم، وإلى جانب ذلك أدت دورا أدبيا وثقافيا كبيرا حين كان يرتادها البعض للسمر ويحضر أحد القصاصين أو الرواة ليسرد عليهم قصصا من الماضي، وقد جنى أصحاب هذه المقاهي التي عُدت رواقات ثقافية أرباحا كثيرة لكثرة مرتاديها، وكثرة الطلبات التي يطلبونها من المقاهي. (الأنصاري، المسقاية، ص٨١–٨٦.

(٢) ديدييه، رحلة، ص١٤٠.

(٣) ديدييه، رحلة، ص١٣٠.

(٤) الرغامة : أرض رملية على يمين المتجه من جدة إلى مكة المكرمة يسيل فيها وادي عُلَيّل من الشرق شهدت الرغامة عدة أحداث بين الأشراف وآل سعود وفيها عسكر الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود لحصار الشريف علي بن الحسين في جدة سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م تعتبر اليوم جزء من جدة إلا إن العمران لم يشملها كلها. (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج(٤)، ص٦١.

جملاً وهجاناً كافية لحملهم لأن المرافقين كانوا يمشون سيراً على الأقدام(١)، وقد استراحت القافلة في مقهى الرغامة وهو المقهى الأول من بين اثني عشر مقهى منتشرة في الطريق بين مكة وجدة لتناول قهوة الوداع(٢).

ثم أكملت القافلة مسيرها حتى المقهى الثاني مقهى البَيَّاضَة(٣)حيث تم المبيت فيه حتى الصباح؛ إذ إن ديديه أصابته حمى أرجع مرافقوه سببها لتناوله القهوة مباشرة بعد تناول البطيخ(٤)، ثم وصلت القافلة بعد أن قطعت شوطاً من المسير إلى مقهى حَدَّة(٥)؛ وهو أكبر المقاهي الأحد عشر في منتصف الطريق بين جدة ومكة المكرمة؛ وهي عبارة عن سقيفة من أغصان الأشجار يحيط بها سقائف صغيرة وإلى الجوار منها مسجد، فاستراحت القافلة تحت ظل تلك السقائف لشدة الحرِّ، ثم انحرفت القافلة من مسارها باتجاه مكة المكرمة شرقاً إلى الجهة الجنوبية حيث يحظر على غير المسلمين دخول مكة، وقد أقيمت الأعلام حول مكة لتحديد حدود الأرض المقدسة بين كل مسافة وأخرى والتي يحرم على غير المسلمين دخولها، كما يحرم فيها الصيد وإراقة دم الإنسان والحيوان(٦).

ولمَّا كان شارل قد عاد من طريق آخر، فقد توقفت القافلة عند مقهى حدة حيث يلتقيا طريقا الطائف وكانت مليئة بالجرذان التي تلتف في حُصر المقهى وفُرشها(٧).

ثالثا : الأطعمة والأشربة:

لكل مجتمع من المجتمعات المدنية أنواعٌ وألوانٌ من المآكل والمشارب التي يتقوى بها بدن الفرد على مشاق الحياة ومتاعبها، ولمَّا كان مجتمع الحجاز كغيره من المجتمعات المدنية، فقد

---

(١) ديديه، رحلة، ص٢١٧؛آل زلفة، الطائف، صحيفة الجزيرة الإلكترونية.

(٢) ديديه، رحلة، ص٢١٨.

(٣) البياضة: بفتح الموحدة وتشديد الياء الأولى ؛ صدر وادي الأبطح يشملها اليوم اسم المعابدة فيها القصر الملكي، وهي قصر بناه الشريف غالب في صدر الأبطح في المعابدة، وقد تم هدمه وإزالته، (البلادي، معجم معالم الحجاز،ج(١) ص٢٦٢،٢٦٣.

(٤) ديديه،رحلة،ص٢١٨،٢١٩.

(٥) حدة : حَدَّاء: بالفتح ثم التشديد وألف ممدودة وادٍ فيها حصن ونخل بين مكة المكرمة وجدة يعرف اليوم بـ: حدة عاتق٢٤١ وحداء: جبل للجحادلة بطرف يلملم من الجنوب يقابل جبل عواهي بينما درب السيل، وحداء: قرية في بلاد بني مالك قرب بجيلة جنوب الطائف على ١٦٠ كيلا تقريباً، (عاتق، معجم معالم الحجاز، ج(٢)، ص٢٤١،٢٤٢.

(٦) ديديه، رحلة، ص٢٢٠.

(٧) ديديه، رحلة، ص٢٨٦.

تنوعت فيه المطاعم والمشارب مابين أطعمة وأشربة محلية قائمة على الإنتاج الحيواني وأطعمة من الإنتاج النباتي، فضلاً عن دخول بعض الأصناف التي عرفها سكان الحجاز من الوافدين إلى بلادهم ومجاورتهم بها، وقد تضمنت كتابات ديدييه وصفاً لهذه الأطعمة والأشربة.

كانت مدينة الوجه أول البرِّ الذي نزله ديدييه بعد عبورهم بالسفينة في البحر الأحمر وهناك قدم عليهم أفراد من قبيلة بلي التي تسكن تلك البلدة، وقدَّموا لأفراد القافلة البيض والحليب والخبز ولحم الخراف والأسماك، ويُستنتج من كلام ديدييه أنها كانت بكميات كبيرة جعلتهم يدعمون مخزونهم من الطعام المخزن للرحلة(١).

ويتبين من خلال مانتاوله ديدييه ورفاقه من أطعمة وأشربه أن غالب ماكان يؤكل ويشرب عند أهالي الحجاز قَائمٌ على الإنتاج المحلي الذي يقوم الأهالي بإعداده وتجهيزه، فلما كانت الصحراء تمثل جزءًا كبيرًا من أراضي شبه الجزيرة العربية، فقد انتشرت حرفة الرعي على نطاق واسع، فأصبحت الأغنام مصدرًا خصبًا للحلوم والحليب ومشتقاتها من الألبان والأجبان والزبد والسمن، وقد كانت أسواق الحجاز سوقاً رائجةً لهذه المنتجات المحلية التي يأتي أبناء البادية بها لبيعها في أسواق المدن الحجازية لاسيما في موسم الحج، ثم إن هناك إنتاج المدن المحلي؛ حيث قامت الزراعة في بعض المدن الكبرى التي امتازت بوفرة مياهها وخصوبة تربتها؛ كالمدينة المنورة والطائف وكذلك حول روافد الأودية وفي بطونها وحول الواحات؛ فقامت حرفة الزراعة على نطاق أوسع من غيرها من المناطق في شبه الجزيرة العربية فانتشرت زراعة النخيل التي كانت تمثل مورداً مهمًا التمور بكافة أنواعها، وكذلك زراعة القمح والشعير والدخن التي أسهمت في صناعة الخبز والمخبوزات الأخرى(٢).

ولمَّا كانت الوجه بلدة ساحلية كان من الطبيعي أن يتذوق بها شارل ورفاقه الأسماك الطازجة شأنها شأن بقية المدن الساحلية الواقعة على ساحل البحر الأحمر؛ كجدة وينبع ورابغ التي كانت أسواقها تزدهر بأنواع الأسماك، وقد أشار عديد من الرحالة الذين مروا بمدن الحجاز الساحلية وقراها بجودة الأسماك التي كانوا يتناولونها في تلك الأماكن(٣).

---

(١) ديدييه، رحلة، ص١١٦.

(٢) حول معلومات أوسع عن حرفة الرعي والزراعة في بلاد الحجاز انظر:(القحطاني، الأوضاع الاقتصادية،ص٦٥-٨٦.

(٣) من هؤلاء الرحالة : كبريت الحسيني سنة١٠٣٩هـ/١٦٢٩م الذي زار رابغ وأشار إلى توافر الأسماك بها،(رحلة الشتاء والصيف، ص٦١ وتبعه بوركهارت سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م الذي أشاد بشهرة سكان رابغ بصيد الأسماك

إن أفضل منتج غذائي وجده ديدييه في أسواق ميناء ينبع هو التمر الذي اشتهرت به المدينة المنورة كذلك، وكان طعام للسكان كما كان يقدم للدواب كالخيول والأحصنة حسب ما ذكره(١)، كما أثنى على تمر المدينة بدعاء وبركة الرسول ﷺ وإن لم يوضح ما إذا كان التمر الذي مدحه هو تمر المدينة أم لا، ولكن اعتماد على ما ذكره ديدييه في موضع آخر من أن داخل ميناء ينبع قد انعدمت فيه زراعة أشجار النخيل وحتى في الريف الممتد خارجها، فإنه يمكن القول بأن التمر ذا النوعية الجيدة الذي وجده في أسواق ميناء ينبع ليس من إنتاج المدينة ذاتها "وليس في داخل المدينة إلا شجرة أو شجرتان من النخيل منفردتان أمام المسجد، وليس هناك أكثر من ذلك خارجها، "وقد خرجت من باب المدينة المنورة للقيام بجولة في الريف فلم أر شجرة واحدة ولم اكتشف إلا الصحراء العقيمة التي تمتد قاحلة وعارية من البحر إلى الجبال"(٢) وارتكازاً على ما سبق أن ذكره من امتداح تمر المدينة وقد يمتد التخمين والاجتهاد المستنبط من حديث ديدييه عن ينبع النخل وغناها بأشجار النخيل إلى القول بأنه سوق ميناء ينبع كان يزخر كذلك بتمور ينبع النخل، إذ عبَّر عن ذلك بعد الحديث عن عدم وجود أشجار نخيل في ميناء ينبع ولا في الريف الممتد لها حيث الصحراء القاحلة من البحر إلى الجبال بقوله :" ولا نجد بعض المزروعات والمساحات الخضراء الا على بعد ست أو سبع ساعات من المسير، وذلك في ينبع النخل، وهي تقع في وادٍ كبير مزروع بنخيل التمر والقمح" (٣) .

وكان يُجنى من الجبال الواقعة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة عسل لذيذ المذاق لونه أبيض براق(٤).

وأما في جدة، فقد كان الوضع الاقتصادي يعبر عن ازدهار لحركة الملاحة والتجارة ورواج لكثير من السلع والمنتجات والبضائع القادمة إلى ميناء جدة من عدد من البلدان والمناطق المختلفة؛ فقد مثلت جدة دعامة اقتصادية مهمَّة لبلاد الحجاز فأصبح ميناءها فضلا عن استقباله للحجاج القادمين للحج عن طريق البحر يستقبل كذلك أنواع السلع والمنتجات والبضائع القادمة

وإحضارها للأسواق لبيعها لاسيما الأسماك المملحة التي يستفيد منها البحارة لحملها في رحلاتهم الطويلة،(تزحال،ج(٢)، ص٧٧.

(١) ديدييه، رحلة، ص ١٢٥ ؛ عبدالحميد، الأوضاع الاقتصادية، ص٣٩٦.

(٢)ديدييه، رحلة، ص١٢٨.

(٣)ديدييه، رحلة، ص١٢٨.

(٤)ديدييه، رحلة، ص١٣٤.

إليها ومنها تصدر لبقية مناطق الحجاز(١)، ولقد صَوَّر ديدبيه هذا المشهد تصويراً معبراً حين ذكر أن أسواق جدة كانت تزخر بالسفن التي كانت ترسو في مرفأها محملة بمختلف السلع والمنتجات ومنها الأطعمة والأشربة؛ فقد أطل ديدبيه من خلال نافذة المنزل الذي كان يسكنه على الميناء التي رست فيه ثلاث سفن محملة بالأرز والسكر(٢).

أما عن الأشربة التي تذوقها ديدبيه بنفسه في جدة، فأشهرها قهوة تعرف باسم (الكسكري)؛ وتصنع من قشور الحَبِّ التي يضاف إليها حبات من القرنفل والقرفة، وقد أرجع شارل أصل هذا المشروب إلى بلاد اليمن، وعندما قُدِّمت له قهوة الكسكري عند زيارته التاجر الهندي الثري في جدة –فراج يوسف وابنه عبدالقادر– في شركتهما أبدى عدم اعجابه بهذا النوع من الشراب(٣).

وعند سير القافلة ديدبيه من جدة للطائف توقفت في مقهى البياضة بين جدة ومكة لتناول القهوة، وقد تناول ديدبيه في هذا المقهى أيضاً البطيخ، فأصيب بالحمى التي أرجعها بعض العرب إلى تناوله القهوة مباشرة بعد البطيخ(٤)، وفي مقهى حدة تناول ديدبيه ورفاقه الأرز والحليب(٥).

وفي بستان الحسينية الواقع أمام جبل ثور الذي استقبل فيه طاهر أفندي أحد خدام الشريف الأكبر أفراد القافلة وأدخلهم لذلك البستان مستقبلهم بحفاوة بالغة، حيث تم طبخ لك خروف ضخم مسلوق في قدر ضخم من النحاس استُخرج من القدر ووضع في جفنة ثم شُقَّ لشقين وتناوله

---

(١)مؤمنة، الأهمية التاريخية، ص٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) ديدبيه، رحلة،ص١٥٥، وذكر الشعفي أن تجارة الواردات في جدة بين عامي١٢٥٦–١٣٣٥هـ/١٨٤٠–١٩١٦م كانت تزدهر ازدهاراً كبيراً في حجمها وقيمتها إلا أنها كانت تتراجع في بعض الفترات متأثرة بالأوضاع السياسية للمناطق ذات العلاقات التجارية مع جدة، ومنها الهند فمن ميناء كلكتا الهندي كان يصل لجدة الأرز والسكر الخشن واللؤلؤ والحرير والقطن، ومن ميناء بمباي كان يرد لأسواق جدة كذلك الأرز والسكر الأبيض النقي والشالات الكشميرية والأثاث، ومن ميناء سورات كانت محلات جدة التجارية تتزين بالملابس القطنية الزرقاء والملابس الحريرية والشالات والإحرامات والبطاطين، ومن جزيرة جاوة الأندونسية كانت تصل الملابس القطنية الزرقاء والبيضاء وأخشاب البناء والتوابل، وكانت الكوفيات القطنية تأتي من البصرة، ومن بوشهر الشالات الفارسية والتي هي تقليد للشالات الكشميرية، ومن مسقط كانت تفد الغتر والعقل، ومن مصوع كان يجلب العبيد –كما ذكر ديدبيه–ويُسمون أحباشا ومن سواكن وزنجبار العبيد الزنوج، ولذلك لاغرو أن تشهد أسواق جدة رواجاً تجارياً منقطع النظير مقارنة بغيرها من مدن الحجاز،(لمزيد من المعلومات يراجع الشعفي، التجارة الخارجية لمدينة جدة، ص٩١–٩٥.

(٣) ديدبيه، رحلة، ص١٧٥؛ اليافي، جدة، ص٤٥.

(٤) ديدبيه، رحلة،ص٢١٨، ٢١٩.الحديث عن البطيخ انتشرت زراعة البطيخ بكثرة في بلاد الحجاز وأشار إليه العديد من الرحالة المسلمين والمستشرقين وإلى حلاوة طعمة ولذة مذاقه.

(٥) ديدبيه، رحلة،ص٢٢٠.

الجميع(١)، وقد انضم طاهر أفندي للقافلة في أثناء سيرها إلى الطائف، فقابلهم بعض الرعاة الذين قدموا لهم الحليب (٢).

وفي عرفات(٣) استراحت القافلة في مقهى عرف باسمها، حيث شرب الجميع لبناً، ثم توقفت القافلة للاستراحة في مقهى شداد أسفل جبل كرا حيث قُدِّم للجميع شراب في صحيفة من خشب وتم استبدال دوابهم بـ١٥ بغلاً كانت تنتظرهم في المقهى(٤).

إن أكثر مشروب تناوله ديدييه ورفاقه خلال مسيرهم وتوقفهم في المقاهي هو الحليب والذي تكرر شربه عند مقهى الكرا وهو مكان واسع مسور بالأحجار بدون طين (٥)؛ مما يؤكد من خلال هذه الشواهد وفرة وجود المواشي والأغنام لاسيما إذا هطلت الأمطار واعشوشبت الأرض، فيكثر إنتاج الماشية للحليب.

وفي المنزل الذي توقف فيه ديدييه ومن معه للاستراحة في الهدا تناولوا اللبن والأرز وخروف ضخم مشوي(٦)، ويظهر هذا أن أصناف الأطعمة تكاد تتكرر مما يؤكد أنها تشكل الأصناف الرئيسة في المائدة الحجازية؛ ولاسيما في القرى والأرياف بخلاف المدن.

ومن الأشجار المثمرة التي شاهدها ديدييه بجبل كرا المشمس والدراق واللوز والعنب التي تُغِلُّ غلات كثيرة ووافرة، كما شاهد حقول القمح والشعير (٧).

---

(١) ديدييه، رحلة،ص٢٢٤.

(٢) ديدييه، رحلة،ص٢٢٥.

(٣) عرفات وعرفة: المشعر الأقصى من مشاعر الحج، تقع على الطريق بين مكة والطائف تبعد عن مكة المكرمة ثلاثة وعشرين كيلاً باتجاه الشرق تحف بها الجبال شرقا وجنوبا ومن الشمال الشرقي، أما في الغرب والشمال الغربي فيمر وادي عرنة، وعرفة كلها موقف إلا بطن عرنة، وجبل عرفة يسمى القرين ويسمى جبل الرحمة وجبل عرفة، وقد عملت حكومة المملكة على تزويدها بكافة الخدمات تيسيراً على حجاج بيت الله الحرام الوقوف في يوم التاسع من ذي الحجة بها وعلى رأسها إعادة اعمار مسجد نمرة، وتوفير كافة الخدمات الصحية وخدمات النقل والمواصلات وتوفير المياه، (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج(٦)، ص٧٥–٧٧.

(٤) ديدييه، رحلة، ص٢٢٨.

(٥) ديدييه، رحلة، ص٢٣٠.

(٦) ديدييه، رحلة، ص٢٣٤.

(٧) ديدييه، رحلة، ص٢٣٥.وقد ذاع صيت مدينة الطائف وشهرتها في إنتاج أجود محاصيل الفواكه من الرمان والتين والعنب ؛ وذلك راجع لاعتدال مناخها ووفرة مصادر المياه بها وخصوبة تربتها .(كمال،الطائف، ص١٧–٢٠.

وفي ضيافة شريف مكة في الطائف تناول شارل طعام العشاء الذي تبين من خلال تعداده لأصنافه أنه عشاء فاخر يحتوي على الخروف المحشو بالأرز والمكسرات؛ ومنها اللوز والفستق وهو من أساسيات المائدة الحجازية التي تقدم للضيوف، ثم حوت المائدة أصناف أخرى من الأطعمة مثل : أوراق العنب المحشوة والكباب وصدور الفراريج المطبوخة بشراب الورد، فضلاً عن الحلويات ذات الأشكال المتعددة المسماة بالفطير(١).

ويتضح من خلال تعداد شارل لهذه الأصناف الأخيرة تأثر المائدة الحجازية بأصناف الأطعمة التي لم تكن موجودة سابقاً كورق العنب والكباب الذي عرفته بلاد الحجاز من أهالي الشام وتركيا خلال توافدهم إلى بلاد الحجاز واستقرارهم بها واختلاطهم بسكانها فتسربت تلك الموروثات الاجتماعية من الأطعمة والأشربة إلى المجتمع الحجازي كما تسربت إليه الموروثات الثقافية.

تلذذ ديدييه أثناء إقامته في الطائف بطعام الإفطار الذي حوى الزبدة الفاخرة والجبن الطازج والعسل والفواكه والزيتون، وتشكيلة من المربيات التي تم إعدادها من قبل حريم الشريف عبدالمطلب اللاتي كنَّ ماهرات في اعداد الطعام هن وجارياتهن؛ خاصة الحبشيات منهن(٢).

كانت القهوة العربية تعد المشروب الرئيس في ضيافة الضيوف؛ ولذا احتسى ديدييه في الطائف القهوة مع أصناف الحلويات التي تلتها والتي كان يطاف بها طوال وقت الزيارة عند الشريف عبدالمطلب(٣).

وعند زيارة ديدييه لبستان الشريف عبد المطلب في الطائف المعروف باسم الباطنة أشاد بكرة مزروعاته من أشجار التين وثماره الفاخرة وأشجار السفرجل والرمان التي لم تكن بأقل جودة من التين، وهناك أشجار الورد الجوري الذي تشتهر به الحجاز عامة(٤).

---

(١) ديدييه، رحلة، ص٢٤١.
(٢) ديدييه، رحلة، ص٢٤٢،٢٤٣.
(٣) ديدييه، رحلة، ص٢٤٧.
(٤) ديدييه، رحلة، ص٢٥٨.

أثنى ديدييه كثيراً على حسن استقبال أسرة شمس لهم في منزلهم الآخر الذين انتقلوا إليه بعد أن تركوا منزلهم الأساسي لديدييه ورفاقه؛ فقد بلغ الكرم والضيافة حداً بهذه الأسر جعلت ديدييه يعبر عن ذلك بأن القهوة والشراب والحلويات كانت تتابع دون انقطاع(١).

وتتكرر مأدبة الطعام الغنية بالأصناف الدسمة مرة أخرى أمام ناظري ديدييه في بيت السيد حامد الذي توقفت القافلة عنده أثناء خروجها من الطائف للعودة إلى جدة حيث قدم لهم الشريف حامد في بيته الخروف المحشو بالأرز واللوز في وجبة العشاء، ولم يكن خروف الفطور والغداء أقل من وجبة العشاء الدسمة، هذا فضلاً عن أصناف الحلويات والمربيات و، كان مسك ختام الزيارة وجبة غنية بالأرز واللحم والتوابل(٢).

وبعد خروج ديدييه ورفاقه من الطائف باتجاه جدة استراحوا في قرية لقيم(٣)في منزل قاري الريفي وباتوا ليلتهم تلك بعد أن تناولوا خروف الضيافة، وعندما استيقظ وأطَّل برأسه من النافذة وقع ناظره على حديقة كبيرة تزينها أشجار البرتقال والليمون والرمان(٤).

وعندما توقفت القافلة في وادي فاطمة(٥)أثناء عودتها من الطائف إلى جدة اصطحب الشريف حامد ديدييه إلى بستان عرفه باسم بستان (النص) أعجب ديدييه بجماله وخضرته وجريان مائه؛ وخاصة أشجار الموز التي استلقى ديدييه تحتها وتظلل بأوراق أشجارها العريضة ثم

---

(١) ديدييه، رحلة، ص٢٦٢.

(٢) ديدييه، رحلة، ص٢٨٤.

(٣) لقيم : وادٍ زراعي تكثر فيه زراعة اشجار العنب والرمان والخضار وللأشراف العبادلة جُل ملك أراضيه، وادي وعقيق الطائف إذا تجاوز بلدة الطائف سمي لقيماً، فأعلاه لقيم الأعلى، وأسفله لقيم الأسفل. (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج(٧)، ص ٢٦٣.

(٤) ديدييه، رحلةص٢٧١.

(٥) وادي فاطمة: مِرَّ الظهران واد فحل من أكبر أودية الحجاز، يأخذ أعلى مساقط مياهه من السفوح الشرقية للسراة غرب الطائف، وله هناك روافد هما: نخلة الشامية ونخلة اليمانية ثم يجتمعان النخلتان فيسمي الوادي وادي الزيارة فإذا تعدى قرية أبي حصاني سمي وادي فاطمة، وفيه قرى عديدة منها الجموم وقصة الوادي وغيرهما، وبأسفله قرية حداء بين مكة وجدة وبلدة بحرة، وتصب فيه أودية عظيمة مثل سرف وفخ، وسكانه أغلبهم من الأشراف مع فئات من حرب، ويسمى أيضا بوادي الشريف نسبة للشريف أبانمي(٩٢٢-٩٣٢هـ/١٥٢٦-١٥٨٤م) الذي امتلك أغلب أراضي الوادي، أما تسميته بفاطمة نسبة لزوجة الشريف أو أمه الذي امتلكه، (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج(٥)، ص ٤٧،ج(٨)، ص ١٠٠-١٠٢؛أوبنهايم، البدو، ج(٢)، ص٤٥١.

تناول النارنج داخل هذه الحديقة(١)، وكان وادي فاطمة من أشهر الأودية التي اشتهرت بزراعة أجود أنواع الفواكه والخضار (٢).

وعند توقف ديديه في مقهى الرغامة أثناء عودته من الطائف بعد زيارة الشريف عبدالمطلب شرب لبناً لذيذاً منعشاً (٣) .

وقبل أن يغادر ديديه جدة نهائيًا إلى مصر ومنها لفرنسا دعا عدد من رفاقه إلى طعام العشاء في سكنه المؤقت؛ وعلى رأسهم الشريف حامد والسيد كول والسيد دوكيه والأمير خالد بن سعود وتناول الجميع طعام العشاء الذي أعده الطباخ غاسبارو، وشمل أصناف متعددة من الأطعمة غير الخروف المحشو الذي عُهِد بطبخه إلى طباخ محلي مشهور في جدة بطمره في فرن محفور في الأرض(٤).

رابعًا : الأزياء والملابس(٥):

تعتبر الأزياء والملابس رمزًا لثقافة كل بلد وجزء من تراثه، وتتباين ألبسة الشعوب وأزياؤها كل حسب ظروفه المناخية ووضعه المادي ووفرة المواد الخام التي تصنع منها، كما إن لكل فئة من فئات المجتمع زيها الخاص بها، وقد حوت صفحات كتاب رحلة ديديه وصفا لتلك الملابس التي كان يرتديها أبناء مجتمع الحجاز.

(أ) لباس الرجال:

– لباس الأشراف:

أشار ديديه إلى لباس شريف مكة عند زيارته له في الطائف فقد كان يرتدي ثوبًا أزرقً فاتحًا ويتوشح بوشاح كشميري ويضع خنجرًا مطليًا بالذهب ومرصعًا بالأحجار الكريمة اللامعة في خصره(٦).

أما عند قدوم شارل لتوديع الشريف عبدالمطلب عند مغادرته للطائف، فقد كان الشريف يرتدي عباءة خضراء كشميرية مزينة بسعفات حمراء(١).

---

(١) ديديه، رحلة، ص٢٨٠.

(٢) ديديه، رحلة،ص٢٧٩، ٢٨٠؛القحطاني،الأوضاع الاقتصادية،ص٨٠، وقد أشار إلى زراعة أشجار النخيل بوادي فاطمة والقمح والشعير والفواكه كالموز والليمون والنارنج واللوز والجوز والسفرجل، وكذلك شجرة الحناء ذات الرائحة الجميلة التي تباع على الحجاج.

(٣) ديديه، رحلة، ص٢٨٧.

(٤) ديديه، رحلة،ص٢٨٧، ٢٨٨.

(٥) لمزيد من التفصيلات حول الملابس الحجازية يراجع:(الدوسري، الملابس الحجازية، ص٤٥–٨٩.

(٦) ديديه، رحلة، ص٢٤٨؛ البقاعي،قراءة في رحلة، ص١٠٧.

وفي نهاية رحلة ديديه من الطائف إلى جدة أكرم هو وأفراد قبيلة رئيس الجمالة بثوب أحمر لبسه على الفور من شدة فرحة به، كما تم تقديم وشاح كشميري للشريف حامد ثمنه ألفا قرش(٢).

وحين عزم ديديه ورفاقه مغادرة جدة إلى الطائف وكان ذلك في ٢٣ فبراير ١٨٥٤م كان يرافق الرحلة الشريف حامد بناء على أوامر من شريف مكة بتجهيز الهجن وعدد من الرجال ما بين ٥–٦ برئاسة الشريف حامد، وقد لفت ديديه نظره لباس الشريف حامد الذي كان عبارة عن وشاح أبيض كبير يرتدي فوقه جبة أرجوانية اللون، وفي حزامه يطقان(٣) مزخرف، وكان حافيًا هو ومن معه من الحراس(٤).

– **لباس أبناء القبائل :**

أفاض ديديه في وصف لباس قبيلة جهينة التي كان أفرادها يمثلون الشريحة الأكبر في مجتمع ينبع رغم أن قبيلة جهينة تركت حياة البداوة واستقرت في المدينة، ولكنها حافظت على زيها التقليدي؛ فالجهني يرتدي ثوبًا منسوجًا من الكِتَّان(٥) أو الحرير ويخضع ذلك للمستوى المادي للفرد، ويُشدُّ الخصر بحزام جلدي ، ثم يلبس الجهني فوق ذلك الثوب عباءة بيضاء فضفاضة قصيرة الأكمام(٦).

ويغطي الرجل رأسه بكوفية (٧) مصنوعة من القطن المصبوغ باللون الأحمر وتُوَشَّى أطراف تلك الكوفية بالحرير الأصفر، ولها أطراف مزدانة بالأهداب تتدلى على الكتفين ويُثَبَّت

---

(١) ديديه، رحلة، ص٢٦٣.

(٢) ديديه، رحلة، ص٢٨٩.

(٣) يطقان: لفظ تركي يطلق على الخنجر المقوس الذي يعلق على الخصر، (حلاق،المعجم الجامع، ص٢٣٥.

(٤) ديديه، رحلة، ص٢١٥؛آل زلفة، الطائف، صحيفة الجزيرة الالكترونية.

(٥) الكتان :نبات بَرِّي حولي مُعَمِّرٌ من فصيلة الكتانيات من المحاصيل الزيتية موطنه شرق البحر الأبيض المتوسط والهند وأوربا، أوراقه خضراء زاهية سنانية وتستخدم في صناعة الأقمشة والأوراق وشباك الصيد،كما يدخل الكتان في صناعة الصابون ومثبتات الشعر والأحبار الأجزاء المستخدمة منه هي الزيت والبذور وتتميز أزهاره باللون الأزرق وهو يستخدم للزينة، أما البذور فهي بُنِّيَّةٌ اللون لامعة مستطلية،(حايك،موسوعة النباتات،المعجم النباتي، ص٢٠٤،٢٠٥.

(٦) ديديه، رحلة، ص١٢٩؛ بوركهارت، ترحال، ج(٢)، ص٢٠٩؛ الرفاعي، ينبع، ص٢٩٦؛محبت، ينبع، ص٥٥٦؛عبدالحميد، النشاط الاقتصادي، ص٤١٨.

(٧) الكوفية: والجمع كوافي: منديل مربع يلبس فوق الرأس، طوله وعرضه ذراع واحد، تتنوع ألوان الكوفية مابين الأحمر الداكن إلى الأخضر الزاهي ومن الأصفر كذلك الذي يكون مرقطاً أحيانا، وغالب الخامة التي تصنع منها الكوفية هو القطن غير أنه من الممكن أن يتجانس الحرير مع القطن فيشتركان في صناعتها، كما أن

على تلك الكوفية عقال مصنوع من صوف الإبل يُلَّف على الرأس عدة لفات، ويحمل هراوة مخفية(١)، وقد وجد ديدييه أن الكوفية والعباءة ذات نفع وفائدة لمن ينتقل في ينبع فارتدى كوفية تحت طربوشه الأحمر وعباءة لم يخلعهما إلا عند عودته للقاهرة (٢) .

وحين توقفت قافلة ديدييه في مقهى شداد لاستبدال الهجن بخمسة عشر بغلاً قدم عليهم عدد من أبناء القبائل المجاورة فوصف لباسهم؛ وهو عبارة عن ثياب زرقاء تُشدُّ حول الخصر بأحزمة من الجلد على هيئة ضفائر تلتف اثنتي عشرة أو خمسة عشرة لفة حول الجسد، وعليهم حمالات سيوف مزينة بصفائح صغيرة من الفضة ويضعون في أحزمتهم الجنبية، وتُغَطِّي رؤوسهم الكوفيات الزرقاء التي وضُع عليها العقال الأسود المصنوع من الشمع والزبدة والراتنج(٣)، وتزين حوافة الخارجية بعروق اللؤلؤ(٤).

وفي أعالي جبل الكرا حيث قدم لاستقبال ديدييه ورفاقه اثنان من الأشراف أرسلهم الشريف عبد المطلب ومعهم قرابة الستين رجلاً من هذيل، وكانت ملابسهم تتشابه مع ما كان يرتديه البدو في مقهى شداد وهم مسلحون بالخناجر والرماح والبنادق ذات الفتيلة(٥).

وفي أسفل وادي جبل الكرا، كان هناك الأعراب المزارعون ينتشرون على الجبل يعملون على استخراج الماء لري أراضيهم أو سقي دوابهم، وعندما مرور القافلة بهم، تركوا أعمالهم وقدموا للسلام على الشريفين ورفاقهم؛ وهم يرتدون ثياباً قصيرة منسوجة من الكتان الخشن تاركين رؤوسهم حاسرة (٦).

كما يرتدي الرجال قمصاناً زرقاء اللون؛ فقد أفاض ديدييه في وصف أبناء البادية الذين اصطفوا لتقديم التحايا للوفد المصاحب لديدييه عند دخولهم لقصر الشريف عبدالمطلب وكان

هناك نوع ثالث من الكوافي الحريرية المكفتة بالذهب، وهذا النوع من غطاء الرأس كان ينتشر قديما بين سكان المدن ويلبسه الرجال خاصة،(دوزي، المعجم المفصل،ص٣٤٦،٣٤٥.

(١) ديدييه، رحلة، ص١٢٩ ؛الرفاعي، ينبع، ص٢٩٦.

(٢) ديدييه، رحلة، ص١٢٩؛عبدالحميد، النشاط الاقتصادي، ص٤١٨، حول الكوفية والعقال انظر: الدوسري،الملابس الحجازية، ص٦٩.

(٣) الراتنج: أو الصمغ أو القلفونة: مادة صلبة شديدة اللزوجة من أصل نباتي مثل اللبان والمصطكى أو حيواني كدم التنين أو صناعي، غير بلورية يستخدم في صناعة الدهانات والمواد المانعة للتسرب وأحبار الطباعة،كما يدخل في صناعة بعض الأدوية والمسكنات. (غربال، الموسوعة العربية، ج(١)، ص٨٥٠.

(٤) ديدييه، رحلة، ص٢٢٨.

(٥) ديدييه، رحلة، ص٢٣٣.

(٦) ديدييه، رحلة، ص٢٣٦،٢٣٧.

عددهم يفوق الثلاثمائة، ولباسهم القمصان الزرقاء والوشاحات ذات اللون الأرجواني التي وضعت على الأكتاف، كما التف حول خاصرتهم أحزمة من الجلد، أما حمائل سيوفهم، فقد زُيِّنَت بصفائح من الفضة وارتدوا عمائم مزينةً بالأصداف، وقد شبههم شارل بعرب هذيل الذين شاهدهم في جبل كرا، وكانوا جميعًا حفاة(١).

– لباس العسكر:

كانت كتابات ديدييه قد تناولت اللباس العسكري الذي كان يرتديه أفراد الحامية العسكرية في بلاد الحجاز، ففي ينبع لم يتجاوز وصفه للباس الجنود الأتراك عن كونهم يرتدون برانس بيضاء (٢)، أما في جدة، فقد كان لباس أفراد الحامية يتألف من سُرَّة حمراء مطرزة بالحرير، وسروال منتفخ معقود عند الركبة، وحزام عريض فيه خناجر ومسدسات(٣) وكان أحمد بيك من الهنود الذين جمعوا عددًا من المتطوعين في جدة يصل قرابة ألف رجل، وكان يرتدي برنساً أحمراً ويضع في وسطه حزاماً قد امتلأ بترسانة كاملة من الأسلحة، ويطقاناً (سيفا) تركيًا محدبًا (٤).

– لباس العامة

عند زيارة – ديدييه لجدة، تحدث عن لباس سكانها،؛ فيرتدي الرجال لباسًا داخليًا منسوجًا من الحرير ذي الألوان الجذابة، ويُشدُّ على الخصر بحزام كشميري ويرتدي العامة في العادة الثوب الكشميري الخشن، وعند الخروج من البيت يرتدي الرجال ثوباً صوفيًا طويلاً مفتوحًا يعرف بالجُبَّة أو البِنْش(٥)، ويُغطي الرجل رأسه بطاقية بيضاء مزركشة يُلَفُّ حولها عمامة من الموسلين(١).
الموسلين(١).

(١) ديدييه، رحلة، ص٢٤٥.

(٢) ديدييه، رحلة، ص١٣١، والبُرْنُس أو البُرْنُوس: كل ثوب رأسه منه، دراعة كان أو جبة، ويرتدى عادة فوق الثوب الداخلي وخاصة في الشتاء ليقي من البرد، ويكون البرنس ضيقاً من الأعلى وواسعاً من الأسفل، وله هدبات مطرزة بالحرير، يُنسج من القطن والصوف، ويشاع ارتداءه لدى سكان المغرب العربي، وللبرانس فائدة كبيرة عند سقوط المطر بتغطية الرأس، (دوزي، المعجم المفصل، ص٧٠–٧٣ .

(٣) ديدييه، رحلة، ص١٦٨.

(٤) ديدييه، رحلة، ص١٧٢.

(٥)الجبة : رداء آخر مفتوح يوضع فوق الرداء الأول وهو القفطان، ردنا الجبة قصيران بالنسبة لردني القفطان، ويرتدي الناس فوق الجبة أما بنشاً وأما فرجية وأما عباءة. وتلبس الجبة في مكة المكرمة –إذ ترتدي فوق البدن– وهي مصنوعة من الجوخ الخفيف– أو من نسيج الحرير الهندي، وفي أيام الحر اللاهبة لا يرتديها الناس مطلقاً– ولكنهم يضعونها على الأكتاف، وترتدي النساء المترفات كذلك جبة من الجوخ ومن المخمل من

وعندما تحدث ديديه عن أشهر تجار جدة أثناء زيارته لها وأكثرهم غنى؛ وهو التاجر الهندي فراج يوسف أشار إلى لباسه ولباس ابنه عبد القادر الذي كان عبارة عن ثوبٍ طويلٍ وعباءةٍ من الموسلين الأبيض من الحرير الهندي(٢).

ويظهر أن الرجال في بلاد الحجاز عرفوا الثياب ذات الألوان؛ فلما تحدث ديديه عن أبناء الشريف عبدالمطلب ذكر أن أحد أبنائه كان يرتدي ثوبًا حريرًا ذا لون أصفر(٣)، كما وصف شارل لباس قائد السفينة المتجهة إلى جدة وكان اسمه خليل سلام فهو لم يكن يرتدي في البحر إلا قميصًا من القطن، ولكن عند النزول للياسة كان يرتدي ثوباً جميلاً من الحرير يكسبه وجاهة(٤).

وأثناء تجول ديديه في سوق الطائف، كان مرتديًا زِيّه الأوربي فيما عدا الطربوش، وارتدى فوق هذا الزي عباءة سوداء فضفاضة كان قد اشتراها من جدة(٥).

وعند مغادرة ديديه ورفاقه الطائف، حصل ديديه على هدية من الشريف؛ وهي عبارة عن عباءة بيضاء مصنوعة من الصوف البغدادي وموشاة بالذهب الخالص، وأما السيد دوكيه فكان نصيبه من تلك الهدايا عباءة سوداء، وحظِي رفيق الرحلة البريطاني بقماش سرج موشى بالفضة(٦).

– لباس النساء:

رغم أن شارل ديديه أشار إلى صعوبة وصف لباس نساء مجتمع الحجاز؛ لقلة من رأى منهن، فقد أعطى وصفًا في رحلته للباس من شاهد من نساء جدة اللاتي كُنَّ يخرجن للتسوق وقضاء حاجتهن؛ متخفيات في ثوب من القطن الأزرق ومبرقعات(٧)، أما النساء الأخريات فيرتدين أثوابًا من الحرير مزركشة منسوجة من حرير الهند وأسفل منها سراويل زرقاء واسعة مشغولة بالخيوط الفضية، وعندما يخرجن يغطين وجوههن بخمار أبيض أو أزرق، ويلتحفن بثياب

الحرير، وهي مبطنة بالفراء شتاء– فهي حينئذ تأخذ اسم (فروة) وهي مفتوحة من الجهة الأمامية وواسعة سعة مفرطة بحيث يمكن طيها طيات عديدة حول الجسم.(دوزي،المعجم المفصل، ص١٠٠–١٠٤.

(١) ديديه، رحلة، ص١٤٣؛ وللتوسع في لباس السكان في جدة يراجع إسماعيل، جدة، ص١٤٥–١٤٨.

(٢) ديديه، رحلة، ص١٧٥؛ اليافي، جدة، ص٤٥.

(٣) ديديه، رحلة، ص٢٤٥.

(٤) ديديه، رحلة، ص١٣٣.

(٥) ديديه، رحلة، ص٢٤٤.

(٦)ديديه، رحلة، ص٢٦٦.

(٧) ديديه، رحلة، ص٤١؛ الدوسري، الملابس الحجازية، ص٧٦.

فضفاضة منسوجة من التفتة(١) السوداء وهو يشبه الحيرة عند المصريين(٢)، وللنساء الجداويات ولعٌ باقتناء الذهب شأنهن شأن نساء الشرق عامة، ويحرصن على التزين بالعقود والأساور والأقراط والخواتين المتعددة ويرتدين الخلاخل الفضة في أرجلهن، كما يزين شعورهن بسلاسل من الذهب؛ وغالباً ما يكون ذلك في الحفلات والمناسبات(٣)، أما إذا كانت المرأة داخل بيتها فتكون ملابسها أبسط من ملابسها عند الخروج، وعبر ديدبيه عن ذلك بقوله : "أما في بيوتهن فقد أُخبرت أنهن يتخفضن من الثياب" (٤).

وإذا كان القارىء قَبِل ماذكره ديدبيه من أن نساء جدة يتخفضن من ملابسهن داخل بيوتهن، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله يتقبل وصفه للنساء بأنهن شبه عاريات وخاصة الجاريات منهن، ثم إن شارل لم يشاهد نساء البيوت بنفسه، وإنما وفقاً لما ذكره (أُخبرت) فهو يعتمد على مشاهدات غيره وليس على ما وقعت عينه عليه فلا يحمل كلامه محمل الجد(٥).

ثم إن متابعة شارل لهذا الوصف للنساء المقيمات في البيوت بكشف الجزء العلوي من جسمها من خلال نظرته إليهن من بعض النوافذ المفتوحة فيه من التساؤلات والاستفهامات، فقد أشار سابقاً إلى أن أغلب بيوتات جدة ذات نوافذ مغطاة بخشب مثقوب بحيث لا يسمح لمن خارج البيت بمشاهدة من بداخله حفاظاً على حريم البيت، فكيف يتسنى له هنا الحديث عن رؤية أولئك النساء من خلال النوافذ غير المحكمة بقوله:" وليس بالنادر أن تلمح في الأحياء التي تقل فيها الحركة عبر نوافذ لم يحكم إغلاقها سهواً أو عمداً النصف الأعلى للمرأة مكشوفًا تمامًا" (٦).
.(٦)

وإذا سلمنا بأن تلك النوافذ لم تغلق فإنه ليس من السهل التسليم بأن النساء في بيوتهن يكشفن الجزء العلوي من أجسادهن لأسباب ومسلمات عدة قد تتعارض مع الشريعة الإسلامية، ومع عادات وتقاليد المجتمع العربي المسلم، وربما تكون حالة نادرة وقعت.

---

(١) التفتة : نوع من الأقمشة الثقيلة التي تتميز بلمعانها وطبيعتها المتماسكة، (قماش التفتةموقع هي،https://www.hiamag.com استرجع بتاريخ ١٤٤٠/١٢/٢٥هـ-٢٠١٩/٨/٢٦م.

(٢) ديدبيه، رحلةص٤١؛ الدوسري، الملابس الحجازية، ص٧٦،٧٨.

(٣) ديدبيه، رحلة، ص١٤٤؛ الدوسري، الملابس الحجازية، ص٨٤.

(٤) ديدبيه، رحلة، ص١٤٤.

(٥) ديدبيه، رحلة، ص١٤٤.

(٦)ديدبيه، رحلة، ص١٤٤.

وفي أثناء عودة ديديه والقافلة التي يسير معها من الطائف إلى جدة توقفت القافلة للاستراحة قرب قرية الزيمة، فأخذ الحليب يتدفق عليهم من نساء بدويات يرتدين أثواب قطنية زرقاء اللون، وفي هذا إشارة إلى أن نساء القبائل عرفن كذلك الثياب الملونة(١).

خامسًا : العادات والتقاليد:

تمثل العادات والتقاليد موروثًا شعبيًا لجميع شعوب الأرض يتناقلونه جيلاً بعد جيل،وتصبغ مجتمعاتهم بصبغة خاصة تحدد هويتهم وتجعلهم يتميزون عن غيرهم، وتُتبع هذه العادات في الأفراح والأتراح والمناسبات والاحتفالات، ومن هذه العادات ماهو مستحسن ونافع؛ ولذلك تسعى المجتمعات لتأصليه والإبقاء عليه، ومنها ماهو مستهجن وضار لها، ولذا تسعى المجتمعات للقضاء عليه والتخلص منه. وحين قدوم ديديه للحجاز وصف بعضا من عادات سكانه، فكان من عادة أهالي ينبع وضع نقوش محفورة في الحوائط أعلى الأبواب اعتقاداً منهم أنها تدفع أذى العين، ولم يبد شارل غرابة لهذه العادة؛ إذ إنها لم تكن قاصرة على بلاد الشرق بل وجدت كذلك عند الغرب(٢) .

تحدث ديديه عن سكان ينبع وأنهم كثيرو التطيُّر(٣)، واستشهد بحادثة مرض الطاعون

---

(١)ديديه، رحلة، ص٢٧٧.

(٢)ديديه، رحلة، ص١٢٥.

(٣) التطير : هو التشاؤم بشيء مرئي أو مسموع، وهو عكس التفاؤل، وأصل التطير أن الناس كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير في خروجهم فإن رأى الرجل الطير طار جهة اليمين تفاءل به، وإن رآه طار جهة اليسار تشاءم منه ورجع، ولما جاءت شريعة الإسلام أبطلت تلك العادة الجاهلية؛ لأنها شرك بالله وسوء ظن به ﷻ، وكان هدي النبي ﷺ في ذلك أنه يحب الفأل ويكره الطيرة وينهى عنها ويقولﷺ : "إنها لاترد مُسلِّماً، فإذا رأى أحدكم مايكره فلا يرجع عن حاجته فليقل:"اللهم لايأتي بالحسنات إلا أنت، ولايدفع السيئات إلا أنت، ولاحول ولاقوة إلا بك"اللهم لاخير إلا خيرك، ولاطير إلا طيرك ولاإله غيرك"،(ابن حجر، فتح الباري،ج(١٠)، ص٢١٢–٢١٤؛ فتاوى الشيخ عبدالعزيز بن باز–يرحمه الله–https://www.binbaz.org.saاسترجع بتاريخ ١٤٤٠/١٢/٨هـ–٢٠١٩/٨/٩م .

الذي انتشر في ينبع فكان الناس يطوفون بجمل في سائر أنحاء البلدة اعتقاداً منهم أن الوباء سيحمل عليه ثم يأخذون إلى مكان محدد ويذبحونه معتقدين بذلك أنهم يقضون على الوباء(١).

أشار ديديه أثناء زيارته إلى جدة إلى عادة تسمى عند أهالي الحجاز وهي بعادة المشالي؛ حيث يعمد الأهالي إلى تشريط وجنات أبنائهم بعد الولادة عندما يُتمون أربعين يوماً إلى ثلاث شرطات في كل وجنة، واثنتين في كل صدغ تاركة أثرًا في وجوههم مدى الحياة، ويهدف الأهالي من هذه إيجاد هذه الندب الفائدة في وجه أبنائهم إلى تكوين علامات شرف وتوقير، كما إن بعض الأهالي كان يفعلها لتكون علامة فارقة لابنة في حالة ضياعه أو فقده، أو خوفاً عليه من السرقة(٢).

ومن عادات أهالي جدة التوجه إلى زيارة القبور في بعض أيام الأسبوع وخاصة يوم الجمعة للدعاء للموتى وتناول بعض الوجبات حتى النساء يفعلن ذلك(٣).

أما النرجلية، فقد اعتاد الرجال عليها وكانت على ثلاثة أنواع؛ الكبيرة منها تسمى الكدر؛ وهي مصنوعة من الفضة وتقوم على ثلاثة قوائم ولها أنبوب طويل يسمى اللَّي ويوضع فيه التبغ الشيرازي، والأصغر حجمًا منها تعرف بالشيشة، والنوع الثالث والأكثر انتشاراً فهي البوري؛ وهي عبارة عن جوزة هند مجوفة مملوءة بالماء، وتثبت فيها قصبة هوائية بدلاً من اللي ويستخدم للأنواع الثلاثة تتباك يأتي من بغداد والبصرة(٤).

وكان من عادة الداخلين إلى مجلس الشريف خلع الحذاء عند الدخول وهو ما فعله ديديه ورفاقه عند دخول منزل الشريف في الطائف(٥).

كذلك من العادات والتقاليد أن لا يكون مع الشريف في المجلس عند دخول الضيوف إليه؛ إذ لا ينهض لأحد إلا السلطان، لذا يدخل بعد دخول الزائر حتى لا يستقبله جالساً محافظاً على أصول اللياقة ومحتفظاً بمكانته وهيبته(٦).

وقبل مغادرة ديديه جدة وتوجهه إلى الطائف اجتمع مع الشريف حامد في بيت مصطفى أفندي وكيل الشريف عبد المطلب، وبعد تناولهم القهوة، قام خدم البيت بصبِّ ماء الورد على

(١) ديديه، رحلة، ص١٣٠.
(٢) ديديه، رحلة، ص١٤٠.
(٣) ديديه، رحلة، ص١٤٨.
(٤) ديديه، رحلة، ص١٧٣.
(٥) ديديه، رحلة، ص٢٤٦.
(٦) ديديه، رحلة، ص٢٤٧.

أيديهم وثيابهم إكرامًا لهم في نهاية الزيارة، وكانت هذه أحد التقاليد المتبعة عند زيارة الضيوف لفرد من أفراد المجتمع(١).

سادسا : الاحتفالات والمناسبات:

عند وصول ديدييه إلى ميناء ينبع شاهد مظهر من مظاهر الاحتفالات التي أقامها بعض الأطفال الصغار كان أحدهم يقوم بالقرع على الدربوكة(٢)، أما البقية فكانوا يرقصون متحلقين(٣).

وينقل شارل لوصف هذه الآلة التي تستخدم في الحفلات بأنها عبارة عن صحيفة مجوفة ذات شكل بيضاوي صنعت من الطين الخشن الذي غطى بقطعة من الجلد(٤).

ولم يكن وجود هذه الدربوكة عند أطفال ينبع بالأمر المستغرب لديدييه إذ سبق وأن شاهد من يضرب عليها على متن أحد المراكب العائدة من القصير إلى ينبع(٥).

الخاتمة : كان خلاصة هذا البحث الوصول إلى النتائج الآتي ذكرها:

– مثلت القبائل العربية القاعدة العريضة لهرم التركيبة السكانية للمجتمع الحجازي، وكانت الحرفة السائدة عند قبائل الحجاز الرعي، غير أن بعضًا منهم

–ولاسيما أبناء القبائل الذين استقروا في المدن– عملوا بالزراعة، كما عمل من استقر منهم في المدن الساحلية بالملاحة والصيد، وقد أشار ديدييه لأسماء بعض القبائل العربية خلال المناطق التي مرَّ بها في بلاد الحجاز؛ ومنها : قبائل بلي وجهينة وزبيد وثقيف وعتيبة والهواجر، وأعطى وصفاً لجانب من تلك الأعمال التي يزاولونها، والأطعمة والأشربة التي يتناولونها، والألبسة التي يرتدونها.

– كان لخضوع بلاد الحجاز للحكم العثماني منذ عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م أثره في وجود بعض العناصر العثمانية في البلاد التي تولت مناصب الإدارة والقيادة في البلاد؛ مثل الباشا العثماني في جدة، ورجال الحاميات العسكرية، وموظفي الجمارك، وهم بدورهم شكلوا شريحة من شرائح المجتمع الحجازي.

---

(١) ديدييه، رحلة، ص٢١٦.

(٢) الدربوكة: آلة موسيقية تتكون من جسم من الفخار مشدود عليه قطعة من الجلد تصدر أصواتا إيقاعية بنغمات مختلفة، (ويكيبيديا،الموسوعة الحرة، استرجع بتاريخ١٤٤١/١/٢٤هـ–٢٠١٩/٩/٢٣م.

(٣) ديدييه، رحلة، ص١٢٦؛ الرفاعي، ينبع، ص٢٩٧.

(٤) ديدييه، رحلة، ص١٢٦.

(٥) ديدييه، رحلة، ص١٢٦.

– شهدت بلاد الحجاز التمثيل الأجنبي للدول التي ربطتها علاقات ومصالح متبادلة مع الدولة العثمانية، وكان من نتائج ذلك وجود سفراء وقناصل في جدة لتأكيد هذه العلاقات، وهو الأمر الذي تعرض له ديدييه في كتابه بالحديث عن القنصل الفرنسي والقنصل البريطاني، واللذين استدعى وجودهما وإقامتهما في جدة وقيامهما بالتمثيل الدبلوماسي لبلادهما ماكان يربطهما من علاقات سياسية واقتصادية خاصة أن مدينة جدة كانت تشهد وجوداً لعدد من رعايا الدولتين فيها لدواع سياسية واقتصادية وغيرها.

– تشرفت بلاد الحجاز بوجود الحرمين الشريفين مما دفع بعدد كبير من المسلمين في كافة أنحاء الأرض للإقامة والمجاورة بها؛ فأصبحت موئلاً للأجناس والأعراق والألوان المتعددة، كما آثر بعض أرباب التجارة وطلاب العلم المجاورة بها، وقد سلَّط ديدييه في رحلته الضوء على فئات من العناصر البشرية التي قدمت إلى بلاد الحجاز واستقرت بها؛ ومنها الحضارمة والهنود والأفارقة والأتراك وغيرهم، كما قدم شارل صورة حيَّة عن الأعمال والمناشط التي كانوا يقومون بها، وأبرز جانباً من أدوارهم التي لعبوها داخل المجتمع الحجازي؛ وعلى الأخص في ميادين التعاملات التجارية.

– لم يغفل ديدييه في رحلته الحديث عن فئة مهمة من فئات المجتمع الحجازي، وهي فئة النساء اللاتي كنَّ يمثلن النصف الآخر للمجتمع، ورغم إن شارل قدم تبريراً في كتابه عن قلة الحديث عن المرأة الحجازية لقلة من رآهن خارج البيوت وفي الأماكن العامة إلا إن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى بعض من أنواع اللباس والزينة التي كنَّ يرتدينها، ودورهن في إعداد الأطعمة، وخير مثال قدمه لذلك نساء الشريف عبدالمطلب وجواريه في تجهيز موائد الطعام الغنية بالأصناف المتعددة.

– شكل العبيد والجواري قسما لايستهان به من شرائح المجتمع الحجازي؛ مما حدا بشارل لأن يلتفت إليهم بقلمه وقراطيسه؛ فتحدث عن الطرائق التي كانوا يجلبون بها من بلادهم إلى مدن الحجار عبر السفن والقوارب، ثم أشار لكريم المعاملة التي كان يلقاها هؤلاء الخدم داخل بيوت أسيادهم معاملة تليق بكرامة الفرد وإنسانيته؛ ولاسيما الجاريات اللاتي كن يحصلن في ظل هذا التعامل الراقي على الحرية من الرق بعد أن يتزوجها سيدها وينجب منها، مبرزاً دورهم في القيام بالخدمة ومعاونة أربابهم في شؤون الحياة اليومية، ورغم أن ديدييه لم يقدم إحصاء دقيقًا عن أعداد هؤلاء العبيد والجواري إلا إنه اتضح من خلال مقتطفاته في الحديث عنهم بأن أعدادهم ليست بالقليلة ولاسيما في بيوت الأشراف وكبار الأعيان الذين كانت قصورهم ودورهم تعج بالعشرات منهم.

– غلب على المسكن الحجازي والمرافق العامة بساطة البناء وبساطة الأدوات التي استخدمت في بنائه من الأخشاب والحجارة، غير أن بساطة البناء المعماري لمساكن الحجاز لم تمنع من وجود بعض المباني التي اصبغت بصبغة الفخامة مثل: قصور الأشراف وحصونهم، ولكن الظاهرة المعمارية والجمالية للمسكن الحجازي تمثلت في تلك الرواشين والمشربيات التي أدت وظائف وأدوار عدة تتفاوت بين الأدوار الجمالية بما حوته من زخارف ونقوش وأشكال هندسية، والوظائف الصحية بإدخال الضوء والشمس والهواء النقي لتلك الدور؛ ويسبق ذلك الدور المتلائم مع تعاليم الشريعة الإسلامية بحجب نساء تلك الدور من أن يراهن من بخارج الدور من غير المحارم.

–تخللت صفحات رحلة في رحاب الشريف الأكبر وصفاً لبعض المعالم العمرانية التي شاهدها صاحب الرحلة من المرافق العمرانية التي نزل بها وتوقف عندها أو مرَّ بها خلال سيره وتنقلاته ومنها: المساجد والأسوار والأسواق والمقاهي والبساتين والمزارع.

– تعددت المطاعم والمشارب التي كان يتناولها سكان بلاد الحجاز ، وقد غلب عليها الإنتاج المحلي من مشتقات الحيوانات مثل الأجبان والسمن والزبد واللحوم، أو ماتجود بعض الأراضي الزراعية في المناطق الخصبة من أصناف الفواكه والثمار مثل : التمر الذي أبدى ديدبيه إعجابه به في ميناء ينبع، وكذلك الموز والبرتقال والنارنج والتين والرمان التي جادت بها مزارع الطائف وبساتينها، ثم الأسماك الطازجة في المدن الساحلية؛ غير أن ذلك لم يمنع من دخول بعض أصناف الأطعمة إلى المائدة الحجازية كورق العنب والمشويات التي كان شارل يتلذذ بتذوقها على الموائد التي كانت تُعد له ولرفاقه في بيت الشريف عبدالمطلب وكبار الأعيان مثل : الشريف حامد والسيد محمد شمس الدين.

– تنوعت الألبسة والأزياء لسكان بلاد الحجاز، وكان لكل شريحة لباس خاص بها؛ كالقبائل والأشراف وكبار الأعيان وعامة السكان والنساء، كما تنوعت الخامات التي كان يُنسج منها ذلك اللباس مابين القطن والكتان والحرير، وكان للمستوى المادي دور في تحديد نوع اللباس الذي يرتديه السكان، ولعل الملفت للنظر في تلك الألبسة التي كان يرتديها العامة والخاصة أنها تتزين بألوان عدة منها الأزرق والأحمر والأخضر؛ فعند مقابلة ديدبيه للشريف عبدالمطلب كان يرتدي ثوبا أزرق اللون، وحين قدم شارل لتوديعه كان يرتدي عباءة خضراء، كما أهدى شارل رئيس الجمَّالة المرافق لهم ثوباً أحمر، وهو الأمر الذي يبرهن عن أن ألوان الزي للرجل كانت ذات ألوان عدة، وليس كما أصبح الوضع عليه في الوقت الحالي من غلبة اللون الأبيض على ملابس

الرجال في بلاد الحجاز، وأصبح اللباس المتعدد الألوان كنوع من أنواع التراث الشعبي، ولكن تلك الأثواب الملون بعد أن توارت بالحجاب عادت للظهور في السنوات الأخيرة في ظل مواكبة مظاهر التأنق في الزي واللباس وبخاصة عند فئة الشباب.

– أبدى أبناء المجتمع الحجازي حرصهم على ارتداء أغطية لرؤوسهم وقاية لهم من حرارة الشمس في الصيف، وبرودة الطقس في الشتاء، وكما غلب على ثياب الرجال بعض الألوان؛ فقد تزينت كوفياتهم وعمائهم بالأصباغ الأرجوانية والحمراء والزرقاء؛ فأعراب جهينة كانوا يُغَطُّون رؤوسهم بالكوفيات القطنية الحمراء الموشاة بالحرير الأصفر، وحين توقفت قافلة شارل في مقهى شداد قدم عليهم أفراد من أبناء القبائل المجاورة وهم يغطون رؤوسهم بكوفيات زرقاء .

– لازم ارتداء أبناء الحجاز لملابسهم وثيابهم ارتداء الأحزمة التي تشد حول الخصر لوضع أسلحتهم الخاصة بها، وتشارك في الخاصة والعامة، فعند لقاء الشريف عبدالمطلب شارل كان يزين خاصرته بخنجر مطلي بالذهب ومرصع بالأحجار الكريمة، والشريف حامد الذي رافق شارل في سيره إلى الطائف كان في حزامه خنجر مزخرف، وأعراب مقهى شداد الذين قابلهم ديديه كانوا يضعون في أحزمتهم الجنبية.

– كان لمجتمع الحجاز كغيره من المجتمعات عادات وتقاليد متوارثة أشار إليها ديديه في رحلته ومنها : عادة المشالي وعادات زيارة القبور والعادات المرتبطة بالدخول على الشريف.

– عبَّر أبناء مجتمع الحجاز عن احتفالاتهم بمظاهر عدة منها الغناء واستخدام بعض الالآت كالدربوكة التي شاهد ديديه بعض أطفال ينبع يضربون عليها، وبعض ركاب السفينة التي أبحر عليها قادماً إلى الحجاز ينشدون بعض الأناشيد ويضربون عليها مما يدلل على أنها كانت وسيلة من وسائل الترفيه والتسلية وقضاء وقت من الترويح عن النفس.

الملاحـــــق

الرحالة الفرنسي شارل ديديه(١)

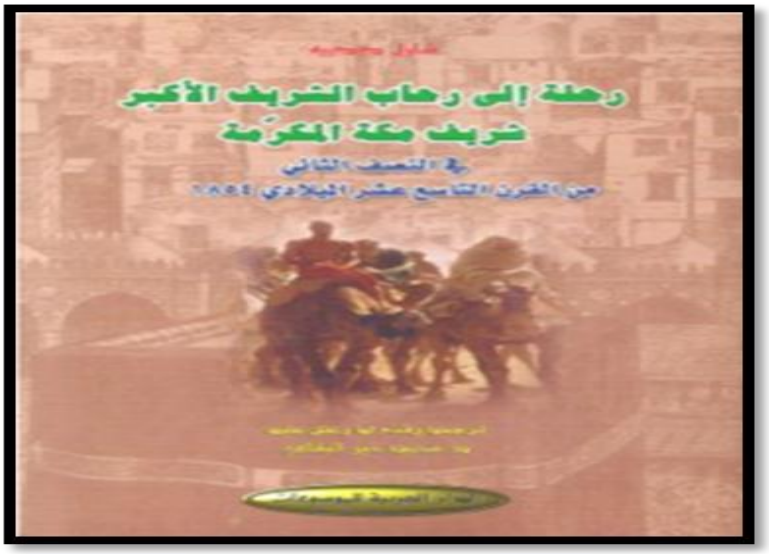

صورة غلاف كتاب الرحلة(٢)

(١) https://www0ar.wikipedia.org استرجع بتاريخ ١٤٤١/١/٢٠هـ.
(٢) https://www.abjjad.comاسترجع بتاريخ ١٤٤١/١/٢٠هـ.

لبناء العمراني لبيوت جدة ويظهر فيها الرواشين كفن معماري أصيل(١)

المقاهي في بلاد الحجاز قديما(١)

قائمة المصادر

– المصادر المطبوعة:

- ابن بشر، عثمان بن عبد الله ت١٢٩٠هـ/١٨٧٣م،عنوان المجد في تاريخ نجد، ج(٢)، ط(٤) الرياض دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ابن حجر، أحمد ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م، فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه:محمد فؤاد عبدالباقي،المكتبة السلفية.
- حليم بك،إبراهيم ت١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، تاريخ الدولة العثمانية (التحفة الحليمية)، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط(١)١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الحنبلي، راشد علي بن جريس، ت١٢٩٨هـ/١٩٧٨م، مثير الوجد في أنساب ملوك نجد، تحقيق: محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ط١٤١٩هـ.
- دحلان، أحمد زيني ت١٣٠٤هـ/١٨٨٦م، تاريخ أشراف الحجاز، تحقيق: محمد أمين توفيق، بيروت، دار الساقي، ط(١) ١٩٩٣م.
- رفعت باشا، إبراهيم ت١٣٥٣هـ/١٩٥٤م، مرآة الحرمين، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط(١) ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م.
- الزركلي، خير الدين ت١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط(١١)١٩٩٥م، ٨أجزاء .

المصادر المترجمة :

- بوركهارت،جون لويس ت ١٢٣٤هـ/١٨١٧م، ترحال في الجزيرة العربية، ترجمة وتقديم : صبري محمد حسن، القاهرة، المركز القومي للترجمة،ط(١)٢٠٠٧م.
- تاميزييه،موريس ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م،رحلة في بلاد العرب–الحجاز–،ترجمة وتعليق:محمد عبدالله آل زلفة، الرياض، دار بلاد العرب للنشر والتوزيع،١٤٢١هـ/٢٠٠١م .
- جارشلي، إسماعيل حقي أوزون، أمراء مكة المكرمة في العهد العثماني، ترجمة : خليل علي مراد، تقديم وتحقيق: عارف أحمد عبدالغني، دمشق، دار نور حوران، ط٢٠١٣م.

– ديدبيه، شارل ت١٢٨١هـ/١٨٦٤م،رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي١٨٥٤م، ترجمة وتقديم وتعليق:محمد خير البقاعي، الدار العربية للموسوعات.

– صبري باشا، أيوب ت ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م، مرآة جزيرة العرب، ترجمة وتعليق : أحمد فؤاد متولي والصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، ط(١)١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

–فيناتي، جيوفاني ت١٢٤٥هـ/١٨٢٩م، جيوفاني فيناتي حياته ومغامراته في جزيرة العرب في عام ١٢٢٦هـ/١٨١١م، ترجمة : دار بلاد العرب للنشر، تقديم وتحرير ومراجعة : محمد عبدالله آل زلفة، الرياض،دار بلاد العرب،ط(١)١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

– المراجع الحديثة:

– أحمد، مصطفى أحمد وحسام الدين إبراهيم عثمان، الموسوعة الجغرافية،القاهرة،دار العلوم للنشر والتوزيع،ط(١)١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م،ج(٤)المدن والموانىء.

– الأنصاري، ناجي محمد حسن،المسقاية من مظاهر الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة،المدينة المنورة:نادي المدينة الأدبي،ط١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

– أنيس، محمد، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤–١٩١٤م، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

– إسماعيل، صابرة مؤمن، جدة خلال الفترة ١٢٨٦–١٣٢٦هـ/١٨٦٩–١٨٠٩م دراسة تاريخية في المصادر المعاصرة، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ط١٤١٨هـ.

–بكر، سيد عبدالمجيد، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، جدة، دار تهامة، ط (١)١٤٠١هـ/١٩٨١م .

– البلادي، عاتق بن غيث،معجم معالم الحجاز،مكة المكرمة،دار مكة للنشر والتوزيع.

- ج(١)،ط(١)١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- ج(٢)،ط(١)١٣٩٩ هـ /١٩٧٩م.
- ج(٤)،ط(١)١٤٠٠ هـ /١٩٨١م.
- ج(٥)،ط(١)١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ج(٦)،ط(١)١٤٠١ هـ /١٩٨١م.
- ج(٧)،ط(١)١٤٠١ هـ /١٩٨١م.
- ج(٩)،ط(١)١٤٠٢ هـ /١٩٨٢م.

- الجاسر، حمد، معجم قبائل المملكة العربية السعودية، ط(١)، ١٤٠١ هـ.
- جريس،غيثان بن علي، القول المكتوب في تاريخ الجنوب(الطائف وأجزاء من الجنوب)،ط(١)١٤٣٩ هـ /٢٠١٨م،ج(١٣).
- الجَمِيِّل، محمد بن فارس، الأطعمة والأشربة في عصر الرسول ﷺ، الكويت،جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي حوليات كليات الآداب(١٧)، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- الجوهي، خالد حسن سعيد، الحضارم في الحجاز ودورهم في الحياة العلمية والتجارية ١٢٥٦–١٣٣٧ هـ /١٨٤٠–١٩١٨م دراسة تاريخية، الرياض، مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها،ط١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.
- حايك، ميشال، موسوعة النباتات الطِبِيَّة، مكتبة لبنان، ط(١)١٩٩٦م، المعجم الثاني.
- حسين، عبدالله، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ت.
- حلاق، حسان وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية – المصطلحات الإدارية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعائلية، بيروت، دار العلم للملايين، ط(١) ١٩٩٩م.
- الخالدي، دايل علي،الإدارة العثمانية وأنظمتها في الحجاز في عهد السلطان عبدالحميد الثاني(١٢٩٣–١٣٢٧هـ/١٨٧٦–١٩٠٩م)، الرياض،دارة الملك عبدالعزيز،ط١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
- الخطيب، مصطفى عبدالكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط(١) ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي،دمشق،دار الفكر، ط(١)١٤١٠ هـ/١٩٩٠م
- أبو داود، عبدالرزاق سليمان أحمد وليلى صالح محمد زعزوع، جدة معطيات المكان وآفاق الزمان – الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ط(١) ١٤٣٢ هـ /٢٠١١م.
- الرويثي، محمد أحمد، الموانئ السعودية على البحر الأحمر دراسة في الجغرافيا الاقتصادية، دار الواحة العربية، د.ت.
- زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي محمد حسن بك، حسن أحمد محمود، دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠٠ هـ /١٩٨٠م

- السباعي، أحمد، تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ط١٤١٩ هـ /١٩٩٩م.
- ابن سرور، الشريف محمد بن منصور بن هاشم آل عبد الله، قبائل الطائف وأشراف الحجاز، ط(١) ١٤٠١ هـ.
- السيف، عبدالله محمد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي،ط١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- الشريف، أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسولﷺ، القاهرة، دار الفكر العربي،ط(٢).
- الشريف،عبدالرحمن،صادق،جغرافية المملكة العربية السعودية،ط١٤٠٤هـ/١٩٨٤م،ج(٢)إقليم جنوب غرب المملكة.
- الشعفي، محمد بن سعيد، التجارة الخارجية لمدينة جدة في العهد العثماني ١٨٤٠–١٩١٦م،الرياض، ط(١)١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- صابان، سهيل، المعجم والموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م
- الطيب، محمد سليمان، موسوعة القبائل العربية، بحوث ميدانية تاريخية مج(٥) ١٤٢١ هـ /٢٠٠١م، القاهرة،دار الفكر العربي.
- العجلاني، منير ،تاريخ البلاد العربية السعودية،د.ن،ط(٢)١٤١٣هـ/١٩٩٣م .
- العلي، صالح أحمد،الحجاز في صدر الإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة،ط(١)١٤١٠ هـ /١٩٩٠م.
- عمر، عمر عبدالعزيز، دراسات في تاريخ مصر الحديث، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط١٩٨٣م.
- غربال،محمد شفيق،الموسوعة العربية الميسرة،مصر،دار الجيل،١٤١٦ هـ /١٩٩٥م.
- الفايدي، نتيضب عواده، ينبع التاريخ – الأدب– الحضارة،ط(١)١٤٣٥ هـ /٢٠١٤م .
- القثامي،مناحي ضاوي حمود، تاريخ الطائف قديما وحديثا،الطائف،نادي الطائف الأدبي،ط(٢)١٤٠٧ هـ.
- القحطاني، حمد محمد،الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز (١٢٩٧–١٣٢٣ هـ /١٨٨٠–١٩٠٥م)، بيروت، الدار العربية للموسوعات،ط(٢)١٤٢٩ هـ /٢٠٠٩م.
- اللحياني، فهد مرزوق، المدينة المنورة في عهد الملك عبد العزيز(١٣٤٣هـ/١٩٢٥م إلى١٣٧٣هـ/١٩٥٣م)، المدينة المنورة، مركز بحوث ودراسات المدينة، المدينة المنورة، ط ١٤٣٤هـ.
- المصري، حسين مجيب، معجم الدولة العثمانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت.

- مُعَبَّر،الرحلات والرحالة في الجنوب السعودي في مؤلفات غيثان بن جريس(ق٢-١٥هـ/ق٨-٢١م)، ط(١)١٤٤٠ هـ /٢٠١٨م،الجزء الأول.
- نواب، عواطف محمد يوسف، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين،الرياض، دارة الملك عبدالعزيز،ط١٤٢٩ هـ.
- ياغي، إسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، الرياض، مكتبة العبيكان،ط(١)١٤١٦ هـ /١٩٩٦م.
- اليافي، عدنان عبدالبديع، جدة في شذرات الغزاوي، حقوق الطبع للمؤلف، ط(١) ١٤٣١ هـ /٢٠١٠م.
- اليزيدي،مها سعيد سعد، عوامل الهجرات السكانية إلى مكة المكرمة خلال العصر العثماني(٩٢٣-١٣٣٤هـ/١٥١٧-١٩١٧م)،الجوف،مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية،ط١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
- يوسف،عماد عبدالعزيز،الحجاز في العهد العثماني١٨٧٦-١٩١٨م،بغداد،بيت الوراق،ط٢٠١١م.

- المراجع المترجمة:

- أوبنهايم، ماكس فرايهيرفون وآرش برونيلش وفرنر كاسكل، البدو،ترجمة:محمود كبيبو، تحقيق وتقديم : ماجد شبَّر،لندن،دار الوراق،ط(٢)٢٠٠٧م،ج(٢)فلسطين-سيناء-الأردن-الحجاز.
- أوزتونا، يلماز، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، بيروت، الدار العربية للموسوعات،ط(١)١٤٣١ هـ /٢٠١٠م.
- دوزي،رينهارت،المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب،ترجمة:أكرم فاضل،بيروت،الدار العربية للموسوعات،ط(١)١٤٣٣ هـ /٢٠١٢م.
- شير، إدي، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت مكتبة لبنان، ط١٩٨٠م
- غوري، جيرالد دي، حكام مكة، ترجمة: رزق الله بطرس،بيروت:دار الوراق،ط(٢)٢٠١٢م.

- الدوريات:

- الأحمدي، عبدالرحيم، ينبع مدينة الماضي الجميل والمستقبل المشرق، المجلة العربية، العدد الثامن، السنة الرابعة.
- البقاعي، محمد خير، قراءة في رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عنوانها: (إقامة في رحاب الشريف الأكبر – شريف مكة المكرمة) تأليف شارل ديديه، الدرعية، السنة الثانية، العدد الثامن، شوال ١٤٢٠ هـ /فبراير ٢٠٠٠م، ص ص٨٥-١١٠.

- جريس، غيثان بن علي، تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،العدد(٨)، رجب –يناير١٩٩٣م، ص ص ٤١١–٤٣٣.
- خطابي، صالح محمد، الأعمال الخشبية في العمارة التقليدية بمنطقة المدينة المنورة"الرواشين نموذجا"، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد(٣٧)، ربيع الثاني–جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ/إبريل – يونيو ٢٠١١م، ص ص١٥٥–١٩٨.
- الدوسري، نادية وليد، الملابس الحجازية وحلي الزينة والعطور في القرن ١٣هـ/١٩م (دراسة تحليلية) مجلة الجمعية التاريخية السعودية العدد (١٤)، السنة السابعة، ذو القعدة ١٤٢٧ هـ /يوليو٢٠٠٦م، ص ص ٤٥–٨٩.
- الرفاعي، سعد بن سعيد، ينبع بين رحالتين"ق١٣هـ/ق١٩م"،مجلة الآطام، المجلد(١٣)، العدد (٣٩–٤٠)، السنة ربيع الآخر – مارس ٢٠١١م، ص ص ٢٨٧–٣٠١.
- الزيدي، محمد بن منصور بن هاشم، قبائل الطائف، مجلة العرب،المجلد(١٤)،العدد(١،٢) يوليو– شعبان١٩٧٩م. ص ص ٤٢–٧٣.
- عامر، سعاد،حكاية اسم "ينبع"، المجلة العربية، العدد٣٤٥، السنة ٢٠شوال ١٤٢٦هـ/نوفمبر٢٠٠٥م.
- كمال،محمد سعيد حسن،الطائف–فصل من كتاب الطائف جغرافيته تاريخه أنساب قبائله– ،مجلة العرب، مجلد (٤)، العدد(١)، رجب أكتوبر١٩٦٩م.
- محبت، نهلة بنت شحات عمر .
- يَنْبع البحر كما وصفها رحالة غربيون في القرن التاسع عشر الميلادي – مجلة الخليج للتاريخ والآثار، العدد(١٠)١٤٣٦هـ/٢٠١٥م. ص ص٥٤١–٦١٧.
- رابغ ووصف الرحالة لها في العصر الحديث –مجلة الجمعية التاريخية السعودية،العدد(٣٧)، السنة (١٩) ١٤٣٩ هـ/٢٠١٨م، ص ص٤١–١٠٨.
- المطوع، إقبال بنت عبدالعزيز عبدالله، إمارة المدينة المنورة في العهد العثماني الأول ٩٢٢–١٢٢٠ هـ،مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد(٢٨)، محرم– ربيع الأول ١٤٣٠ هـ / يناير – يمارس٢٠٠٩م، ص ص٩٣ – ١٠٤.
- موفاكو، محمد، الألبانيون– عدة تسميات لأمة واحدة– ،مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد(٦٣)، الجزء(٤)، تشرين الأول– صفر١٩٨٨م، ص ص٦٧٧–٦٨٤.

- مؤمنة، فؤاد بن محمد، الأهمية التاريخية والأثرية لمدينة جدة، مجلة الدرعية، العدد(١٣)، السنة الرابعة، محرم١٤٢٢ هـ/أبريل٢٠٠١م، ص ص ٢٢١-٢٣٣.
- النزاوي، صالح مسعد،"ينبع النخل" بلد العيون والنخل، المجلة العربية، العدد١٦٥، السنة ١٥ شوال ١٤١١هـ/مايو ١٩٩١م.
- هيئة التحرير، في تاريخ القبائل العربية –قبيلة جهينة فروعها وبلادها–مجلة العرب، مج(١)، ع(٣)، كانون الأول– رمضان١٩٦٦م، ص٢١٧-٢٢٤.

– المقالات الإلكترونية :

- جدة التاريخية ثمانية أبواب تحمي حاراتها الثلاثة،جريدة الشرق الأوسط،الأحد٢٥رجب١٤٢٥ هـ /٢٥مايو٢٠١٤م، العدد١٢٩٦٢.
- آل زلفة،محمد بن عبدالله، الطائف في كتب الرحالة الأوربيين –شارلز ديديه Charles Didierنموذجا، صحيفة الجزيرة الإلكترونية،العدد١٠١٨٥، السنة ربيع الثاني ١٤٢١ هـ /يوليو٢٠٠٠م.
- فتاوى الشيخ عبدالعزيز بن باز –يرحمه الله–https://www.binbaz.org.sa
- موسوعة وزي وزي،http://www.wezwezi.com
- ويكيبديا الموسوعة الحرة.
- بالصور قصر شبرا تاريخ عريق يميز مدينة الورود بجمال عمارته ومكانته، صحيفة المواطن الالكترونية،٢٠١٥/٧/١٠م، http:www.almowaten.netاسترجع بتاريخ ١٤٤١/١٠/١١ هـ.

– الندوات

- عبدالحميد، آمال رمضان، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في ينبع في العهد العثماني من خلال كتب الرحالة ندوة ينبع عبر التاريخ كرسي الملك سلمان للدراسات تاريخ الجزيرة المدينة المنورة ٥-٦/٤/١٤٣٥ هـ، ط(١) ١٤٣٧ هـ /٢٠١٦م، ص ص ٣٧٥ – ٤٥١.

– الرسائل الجامعية:

- البلاع، هيفاء بنت يحي عبيد، السياحة في محافظة ينبع : دراسة جغرافية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الجغرافيا – كلية التربية – جامعة طيبة، المدينة المنورة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- محبت، نهلة شحات عمر، الحياة الاجتماعية في ولاية الحجاز زمن الحكم العثماني في الفترة ما بين عامي (٩٢٣-١١٥٧هـ /١٥١٧-١٧٤٤م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات في المدينة المنورة، ١٤٢٣ هـ /٢٠٠٢م.